رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القلة المحمودة والكثرة المذمومة

في ضوء الكتاب والسنة

تأليف

محمود بن عطية بن محمد بن علي

مكتبة البلاغ

دبي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القلة المحمودة والكثرة المذمومة
في ضوء الكتاب والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القلة المحمودة والكثرة المذمومة
في ضوء الكتاب والسنة

تأليف
محمود بن عطية بن محمد بن علي

تنويه وإعتذار

يود الناشر أن ينوه بأنه وقعت في بعض الحواشي أخطاء يسيرة في الصفحات من ٧ إلى ٣٢ والصحة أن ينقل رقم (١) في الحاشية من كل صفحة مذكورة أعلاه إلى الصفحة التي تليها. كما أن رقم (٣) في صفحة (٢٢) يصبح رقم (٢) في نفس الصفحة وكذلك رقم (١) في صفحة (٢٧) يصبح رقم (٢) في نفس الصفحة وهي أخطاء لا دخل للمؤلف فيها.

وجزاكم الله تعالى خيراً على حسن تعاونكم ـ مع الاعتذار لفضيلة المؤلف حفظه الله تعالى ورعاه، ولجميع الأخوة القراء الكرام.

الناشر

مكتبة البلاغ
دبي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

مكتبة وتسجيلات البلاغ

دولة الإمارات العربية المتحدة

دبي ـ ص.ب: ٥٣٨٤٠

هاتف: ٣٨٣٨٦٦ ـ فاكس: ٣٨٤٧٠٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدّمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾.(١)

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكُم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾.(٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾.(٣)

أما بعد :

« فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدّي هدْي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢

(٢) سورة النساء الآية (١)

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠ ، ٧١

في النار» [١].

وبعد ،

نحن نعيش في زمن بلغت الهجمة فيه على الإسلام ذروتها ، في زمن تداعى فيه الكفر شرقاً وغرباً على الإسلام لاجتثاثه من جذوره.

ومع هذا التداعي من ملّة الكفر فهناك نوع آخر من التداعي على الإسلام ولكنه من أبنائه بحجة التجديد .

وتسألهم وهل الإسلام بحاجة إلى تجديد؟ وجوابهم أن الغرب والشرق لم يعودوا يقبلون الإسلام بثوبه الحالي فلابدّ من تقديمه لهم بثوب جديد.

ونقول لهم .

إن كنتم تعْنون بالتجديد تنقية الإسلام مما علق به من البدع والعوائد والشركيات فنحن معكم في ذلك بل نعتبره واجب علماء الأمة الأول.

وعندها فنحن نقدم للآخرين الإسلام المصفىّ كما جاءَ بهِ رسول اللّه ﷺ .

ولكنّ نظرة فاحصةً في مؤلفات القوم تُظهر لك المقصود من التجديد عندهم! .

التجديد عندهم يعني أن نردّ كلّ مالا يوافق العقول المريضة، من أحاديث ولو ثبتت.

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول اللّه ﷺ يعلمها أصحابه وكان السلف يفتتحون بها خطبهم في دروسهم وكتبهم ، ولشيخنا رسالة لطيفة جمع فيها طرق حديثها والفاظها وذكر فوائد تتناسب مع موضوعها .

. التجديد عندهم أن يرضى أهلُ الكفر بالإسلام المقدّم لهم وكأن هؤلاء تناسوا قول اللّه تبارك وتعالى .

﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تتبعَ ملتهم قلْ إن هُدى اللّه هو الهُدى، ولئن اتبعتَ أهواءهُم بعد الذي جاءكَ من العلمِ مالَكَ منْ اللّهِ منْ وليٍّ ولا نصير ﴾ (١).

ونظرةٌ متأنّيةٌ في كتبهم تبيّن لك خبث النوايا وأن المراد هدم الدين بحجة التجديد .

فهناك ممن ينتسبون لهذه الأمة وهم من عداد مفكريها كما يُشار إليهم لا يؤمن بما بعد الموت من عذاب القبر!.

وهناك ممن ينتسبون لهذه الأمّة وهم من عداد علمائها كما يشار إليهم يردّون الأحاديث الصحيحة الثابتة!.

فمنهم من يردّها بدعوى أنها أخبار آحاد ومنهم من يردّها بدعوى أنها لا توافق عقولهم ـ المريضة طبعاً ـ .

ومنهم من يردّها بدعوى أنها غير مرادة في ظاهرها وإنما أراد الشارع شيئاً آخر .

فمثلاً .

يؤولون الدابة التي هي من أشراط الساعة الكبرى على أنها الجراثيم المعروفة لدينا الآن. الدّجال عندهم هو الحضارة الغربية بما وصلت إليه من اختراعات .

---

(١) الآية : ١٢٠ سورة البقرة .

بل لقد بلغني حديثاً عن أحدهم وهو يعمل رساماً للكاريكاتير أنه لم يَثْبت عن رسول اللّه ﷺ إلاّ ستة أحاديث، فإن ثبت عنه هذا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ولا يكاد يمضي يوم إلا ويخرج في هذه الأمة من يُتحفُنا بضلالٍ جديد .

وبما أوتوا من حلاوة اللسان وعذوبة الكلام فقد أثرّوا على الكثرة الكاثرة من هذه الأمّة واغتروا بهم وبضلالهم .

فإن ناقشت واحداً من هؤلاء المضَلَّلين أجابك بأن هؤلاء علماء وهم أعلم منك، وهم الكثرة فهل كلهم على ضلال وأنت على صواب.

وكنت أقول لإحدهم.

هلا ذكرت لنا آيةً في كتاب اللّه تمدَحُ الكثرة! التي تتشدّق بها؟.

فيقف حائراً لا يحرى جوابا .

فعزمت بحول اللّه وقوّته على كتابة هذا الكتاب مبيناً أحوال القلّة والكثرة كما وردت في الكتاب والسنة عسى أن تنجلي الغشاوة عن أعين الكثيرين ممنّ اغتروا بالكثرة واعتبروها قدوة يُقتدى بها .

فإلى القلّة والكثرة كما وردت في كتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ .

محمود بن عطية

ونقصد بالقلّة والكثرة هنا الناس المُكَلَّفون منهم المعنيون بكلامنا.

ذكر اللّه عز وجل الكثرة في كثير من المواطن واصفاً اياهم بصفات سيئة كعدم العلم، وعدم الإيمان وعدم الإيمان باليوم الآخر.

ووصفهم عز وجل بعدم شكره على إحسانه وتفضله عليهم .

قال تعالى :

﴿ ألم تَرَ إلى الذين خَرَجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذَرَ المَوْتِ فقال لهم اللّه موتوا ثمّ أحياهم إن اللّه لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون ﴾ (١).

والشكر عادة كما يقول ابن تيمية رحمه اللّه لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر» (٢).

فأكثر الناس لم يشكروا ربهم على تفضله عليهم بالإيمان وتفضله عليهم بأن جعلهم قادرين على عبادته، وتفضله عليهم بالسمع والبصر وما إلى ذلك .

قال ابن تيمية رحمه اللّه .

ومذهب أهل السنّة أن الشكر يكون بالاعتقاد والقول والعمل .

قال اللّه تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ (١). وقام النبي ﷺ حتى

---

(١) الآية ٢٤٣ سورة البقرة .

(٢) مجموع الفتاوى مجلد (١١) ص ١٣٣ .

تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا، وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»(٢).

وإذا كانت الكثرة لا تشكر فالقلّة هي الشاكرة قال تعالى:

﴿ يعملون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجَواب وقدورٍ راسيات اعملوا آل داودَ شكراً وقَليلٌ من عباديَ الشكور» (٣).

ووصف اللّه عز وجل الكثرة في آيات عديدة من القرآن الكريم بأنهم لا يعلمون.

فهم يَحْرصُون على تعلّم ما لا يُقرِّبهُم إلى اللّه زلفى فترى أحدهم يسأل عن وقت الساعة وقيامها وهو جاهل بأمر التوحيد جاهل بعبادة ربه فترك السؤال عما ينفعه إلى السؤال عما لا ينفعه.

قال تعالى:

﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها، قلْ إنما علمُها عند ربّي لا يجليّها لوقْتِها إلاّ هُوَ ثَقُلَتْ في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفيٌّ عنها قل إنما علمها عند اللّه ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٤).

قال السعدي رحمه اللّه في قوله عزّ وجلّ.

﴿ قل إنما علمها عند اللّه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾. فلذلك

(١، ٣) الآية ١٣ سورة سبأ.

(٢) مجموع الفتاوى مجلد ١١ ص ١٣٥، ١٣٦ والحديث متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة رضي اللّه عنه وهو في اللؤلؤ والمرجان برقم ١٧٩٥.

(٤) الآية ١٨٧ سورة الأعراف.

حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه وخصوصاً مثل حال هؤلاء ، الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما يجب عليهم ، من العلمَ ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يُدْركه، ولا هم مطالبون بعلمه»(١).

ولقد كان رسول اللّه ﷺ يغتنم أسئلة بعض أصحابه ليوجّههم إلى السؤال عما يقربهم إلى اللّه عز وجل وفعْل ما يقودهم إلى الجنة .

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا رسول اللّه متى الساعة؟ قال: « وما أعددْتَ للساعة »؟ قال: حُبَّ اللّه ورسوله، قال: «فإنّك مع مَنْ احببْت». قال أنس : فما فرحنا بعدَ الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبي ﷺ «فإنّكَ مَعَ مَنْ احببْتَ».

قال أنس.

فأنا أحُبّ اللّهَ ورسوله، وأبا بكر وعُمرَ فأرْجو أنْ أكونَ معهم وإن لمَ أعْملْ بأعمالهم (٢).

فعندما سأل هذا الصحابي رسولَ اللّه ﷺ سؤالاً ، أخفى اللّه جوابه عن كل أحد ملك أو رسول، أجابه رسول اللّه بجواب على شكل سؤال « وما أعدْدت لها » ؟.

فوجهه رسول اللّه ﷺ للعمل بالتنزيل ليفوز في الآخرة .

فإن معرفة وقت الساعة لو كان مقدّراً أن يعرفه أحد، فلن تدْخلك هذه المعرفة الجنة .

وإنما دخول الجنّة برحمة اللّه أولاً ثم بالأعمال الصالحة وعلى رأسها

---

(١) تفسير السعدي ج٣ ص ١٢٦ .

(٢) صحيح متفق عليه وهو في مختصر مسلم برقم ١٧٧٠ .

محبة اللّه ورسوله وذلك «بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، والتأدّب بالآداب الشرعية»(١).

قال تعالى :

﴿لَخَلْقُ السّمواتِ والأَرْضِ أكْبَرُ مِنْ خلْقِ النّاسِ ولكنَّ أكثَرَ النّاس لا يَعْلمَون * وما يَسْتوى الأعمْى والبصيرُ والذينَ آمنوا وعَملوا الصّالحات ولا المَسيءُ قَليلاً ما تتذكرّون * إنّ الساعة لآتيَةٌ لا ريْبَ فيها ولكِنّ أكثَرَ النّاسِ لا يؤمنون﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه اللّه .

يقول تعالى منبهاً على أنّه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسيرٌ لديه بأنه خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلق الناس بدْأة وإعادة ، فمن قدرَ على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى كما قال تعالى :

﴿أولَم يرَوا أن اللّه الذي خَلَقَ السّموات والأَرْضَ ولم يعْيَ بخلْقِهنّ بقادر على أن يحيى الموتى، بلى إنه على كلّ شيءٍ قدير﴾(٣).

وقال ههنا .

﴿لخلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من خلق النّاس ولكنَّ أكْثرَ النّاسِ لا يَعْلمَون﴾ .

---

(١) هذه الفقرة بين الأقواس من كلام الإمام النووي رحمه اللّه في شرح الحديث مجلد ٨ ج ١٦ ص ١٨٦ .

(٢) الآيات ٥٧ ـ ٥٩ سورة غافر .

(٣) الآية ٣٣ سورة الأحقاف .

فلهذا لا يتدبرون هذه الحجّة ولا يتأمّلونها كما كان كثيرٌ من العرب يعترِفون بأن اللّه تعالى خلق السموات والأرض ويُنكرون المعادَ استبعاداً وكفراً وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى ممّا أنكروا (١).

والمتأمل في سياق الآيات الثلاث المذكورة يجد أن أساس كل أمر يقرّبك إلى اللّه إنما هو العلم .

وبما أن أكثر الناس لا يعلمون فهم قليلاً ما يتذكرون وكذلك فهم لا يؤمنون .

فمن علم تذكرّ ومن علم آمن .

ومن هنا أمَرَ رَبُّنا بالعلم قبل العمل والقول قال تعالى :

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا اللّه واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمِنات واللّه يعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُم ومَثْواكُم ﴾ (٢).

قال الإمام البخاري في صحيحه .

باب «العلمُ قبل القول والعمل»، لقول اللّه تعالى :

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا اللّه ﴾ فبدأ بالعلم .

قال الحافظ في الفتح .

قال ابن المنيرّ

أراد(*) به أن العلْمَ شرطٌ في صحّة القول والعمل، فلا يُعتبران إلاّ به، فهو متقدّم عليهما لأنه مصحّح للنيّة المصححّةِ للعمل، فنبه المصنف على

---

(١) تفسير ابن كثير مجلد (٤) ص ٨٥ .

(٢) الآية ١٩ سورة محمد عليه السلام .

(*) أي البخاري .

ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم « إن العلم لا ينفع إلا بعمل» تهوينُ أمر العلم والتساهل في طلبه(١).

والعلمُ المرادُ به وجه اللّه عز وجل هو طريق العمل الصالح المقبول عند اللّه عز وجل .

قال تعالى :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٢).

فالعمل الصالح لابد أن يكون خالصاً للّه تبارك وتعالى لا تشوبه شائبة، صواباً على طريق رسول اللّه ﷺ .

ولا يكون صواباً أبداً إلا بالعلم ومعرفة ما جاء به رسول اللّه ﷺ .

ومعرفة الحق والباطل لا تكون بكثرة الأَتْباع أو قلتهم، فغالباً ما يكون الحق مع القلة وتكون الكثرة على باطل وضلال .

والحق يُعرف بالطرق الموصلة إليه وكذا الباطل والطرق الموصلة لكل منهما قد بيّنها ربنا تبارك وتعالى في كتابه العزيز وكذلك بيّنها لنا رسولنا ﷺ .

قال تعالى :

﴿ وإن تُطِعْ أكْثرَ مَنْ في الأَرْض يُضلوّكَ عن سَبيل اللّه إنْ يتبعونَ إلاّ الظنّ وإنْ هم إلاّ يَخْرصُون * إنّ ربّك هو أعَلَمُ مَنْ يَضِلُّ عن سبيلِهِ وهو أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ (٣).

---

(١) فتح الباري مجلد (١) ١٠ باب العلم قيل القول والعمل ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) الآية ١١٠ سورة الكهف .

(٣) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ سورة الانعام

قال السعدي رحمه اللّه .

« يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ، محذّراً عن طاعة أكثر الناس، فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم .

فأديانهم فاسدة ، وأعمالهم تبعاً لأهوائهم ، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق .

بل غايَتُهم أنهم يتّبعون الظنّ، الذي لا يُغني من الحق شيئاً ويتخرّصون في القول على اللّه ما لا يعلمون ومن كان بهذه المثابة، فحريٌّ أن يُحَذِّر اللّهُ منه عباده، ويصف لهم أحواله .

فإن هذا ـ وإن كان خطاباً للنبيّ ﷺ ـ فإن أمّته تبعٌ له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه. واللّه تعالى أصدق قيلاً ، وأصدق حديثاً ، و﴿ هو أعلَمُ من يضل عن سبيله ﴾ وأعْلَم بمن يهتدي ويهدي.

فيجب عليكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تتْبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلَمُ بمصالحكم، وأرْحَمُ بكم مِنْ أنفسكم .

ودلّت هذه الآية على أنّه لا يستدلّ على الحقِّ بكثرة أهْلِه، ولا يدُلّ قلّةُ السالكين لأمْرٍ من الأمور أن يكون غير حق .

بل الواقع ـ بخلاف ذلك ـ، فإن أهل الحقّ، هم الأقَلّون عدداً، الأعظمون ـ عند اللّه ـ قدْراً وأجرا .

بل الواجب أن يُستدَلّ على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه »(٢) .

ولقد نهى ربنا تبارك وتعالى عن اتباع الظن (*). في عبادته عزّ وجل

---

(٢) تفسير السعدي ج ٢ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

(*) الظنّ المرجوح الذي يستدل عليه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والبدع

ومعرفته وضَرَب الأمثال ليعقلها من يعقلها .

ومع وضوح الأمثلة، والحق فيها كالشمس في رابعة النهار إلا أن الكثرة الكاثرة أبت إلا أتباع الظن لأنه يتوافق مع الأهواء .

ولقد ضرب اللّه عز وجل مثلاً جلياً واضحاً على شكل استفهام للنفي والتقرير .

هذا المثل يدور حول مسألة الخلق وأن اللّه هو المتفرد بالخلق والتدبير والهداية فكيف يصرف شيء من العبادة لغيره .

قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شَرَكائكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخلْقَ ثُمّ يُعيدهُ قُلِ اللّهُ يبْدأُ الخَلْقَ ثمّ يُعيدُهُ فأنىّ تُؤْفكونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُركائكُمْ مَنْ يهْدي إلى الحقّ قُلِ اللّهُ يهْدي للحَقّ ، أفمَنْ يَهْدي إلى الحَقّ أَحَقُّ أنْ يُتّبَعَ أمَّنْ لا يَهدِّي إلاّ أنْ يُهدى فمَا لَكُمْ كَيْف تَحكُمونَ * وَمَا يَتّبعُ أكْثَرهُمْ إلاّ ظنّاً إنّ الظّنَّ لا يُغْنى مِن الحقّ شيْئاً إنّ اللّه عَليمُ بما يفْعَلونَ ﴾ (١) .

قال السعدي رحمه اللّه .

« ..... أيُّ شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع اللّه بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا اللّه وحده » .

فإذا تبيّن أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع اللّه أوصافاً معنوية، ولا

والضلالات .

(١) الآيات ٣٤ ـ ٣٦ سورة يونس .

(١) تفسير السعدي ج ٣ ص ٣٥٢ .

أوصافاً فعلية، تقتضي أن تُعْبَدَ مع اللّه، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلأيّ شيء جُعلت مع اللّه آلهة ؟ .

فالجواب :

أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضلّ الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنّه حقاً وهو لا شيء .

وأكثر الذين يدْعون من دون اللّه شركاء ما يتبعون في الحقيقة شركاء للّه، فإنه ليس للّه شريك أصلاً، عقلاً ولا نقلاً وإنما يتبعون الظن.

فسموها آلهة وعبدوها مع اللّه. وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة (١).

والمتتبع للآيات الكريمة التي تحدثت عن الكثرة يجد أنها تدور حول نفي العلم، ونفي الشكر ونفي الإيمان وأنهم لا يعقلون وكذلك لا يسمعون فالعلم أساس لكل أمر يعمله العبد .

فمن علم شكر.

ومن علم آمن .

ومن علم عقل .

ومن علم وعى وسمع .

ولذلك كان الأنبياء أعلم البشر ونبينا ﷺ أعلمهم .

ولذلك كانت شهادة أهل العلم وأوّلهم الأنبياء على أجَلّ مشهود وهو توحيد اللّه وقيامه بالقسط .

---

(١) الآية ١٨ سورة آل عمران .

قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللّهُ أنّه لا إِلهَ إِلاّ هُوَ والملائكَةُ وأُولوُا العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إِله إِلاّ هُوَ العزَيزُ الحكيم ﴾[١].

قال السعدي رحمه اللّه .

« هذه أجلّ الشهادات الصادرة من المَلِك العظيم ، ومن الملائكة وأهل العلم على أجلّ مشهود وهو توحيد اللّه وقيامه بالقسط وذلك يتضمّن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء .

فإن الشرع والدين، أصلُه وقاعدته، توحيد اللّه وإفراده بالعبودية، والإعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعزّ والقدرة والجلال ونعوت الجود والبر والرحمة ، والإحسان والجمال وبكماله المطلق الذي لا يحصى أحد من الخلق أن يُحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يَصِلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهي كلّه عدلٌ وقسط، لا ظلم فيه ولا جوْرَ بوجه من الوجوه. بل هو في غاية الحكمة والإحكام .

والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة ، كلّه قسط وعدل .

فتوحيد اللّه ودينه وجزاؤه، قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام اللّه على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يُمكن إحصاؤه وعدّهُ .

---

(١) تفسير السعدي ج ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء ، لأن اللّه خصّهم بالذكر من دون البشر.

وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه .

وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة .

وفي ضمن ذلك: تعديلهم ، وأن الخلْق تبعٌ لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون.

وفي هذا من الفضل والشرف مالا يُقدَرُ قدرُه![١].

عن رجل من الأنصار أن رسول اللّه ﷺ قال.

« أنا أتقاكُم لِلّه، وأَعْلَمُكُمْ بحُدودِ اللّه »[٢].

وقد وصف اللّه خواص الأنبياء بالشكر فهم العلماء العاملون .

قال تعالى :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مع نوحٍ إِنّهُ كان عَبْداً شكوراً ﴾[٣].

وقال تعالى :

﴿ إِن إِبْراهيمَ كان أمّةً قانتاً للّهِ حنيفاً ولَمْ يَكُ مِنَ المشركين * شاكراً

تنبيه :

يراجع حول هذا الموضوع كتاب مدارج السالكين لابن القيم رحمه اللّه فقد كتب حول منزلة الشهادة وهذه الآية مالا مزيد عليه .

(٢) صحيح إسناده صحيح متصل رواه أحمد وهو في السلسلة الصحيحة لشيخنا الألباني برقم ٣٢٩ .

(٣) الآية ٣ سورة الأسراء .

(١) الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١ سورة النحل .

لأنعُمه اجْتَباه وهَداهُ إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ (١).

وقال تعالى :

﴿ اعمَلوا آل داودَ شكراً وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشّكورُ ﴾ (٢).

وكذلك العلماء هم الذين يؤمنون بما أنزل محكما ومتشابها من عند اللّه تبارك وتعالى وأنه حقّ كله .

قال تعالى :

﴿ هُوَ الّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكتابَ منْهُ آياتٌ مُحْكَماتُ هُنَّ أمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشابهاتٌ فأمّا الذينَ في قلوبهمْ زَيْغٌ فيتّبعونٌ ما تَشابَهَ منْهُ ابْتَغاءَ الفتْنة وابْتغاءَ تأويله وما يعْلَمُ تأْويلَهُ إلاّ اللّهُ والرّاسخونَ في العِلْمِ يقولونَ آمَنّا به كلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنا وما يذّكرُ إلاّ أولوا الأَلْباب ﴾(٣) .

قال السعدي رحمه اللّه :

« يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوّميّته أنّه هو الذي تفرّد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد ـ ولن يوجد ـ له نظير أو مقارب في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق .

وأن هذا الكتاب يحتوي على الحكم الواضح المعاني البيّن الذي لا يشتبه بغيره .

ومنه آيات متشابهات، تحْتملُ بعض المعاني ولا يتعيّن منها واحد من الإحتمالين بمجردها حتى تُضَمّ إلى المحكم .

---

(٢) الآية ١٣ سورة سبأ.

(٣) الآية ٧ سورة آل عمران .

(١) تفسير السعدي ج (١) ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف ـ لسوء قصدهم ـ يتبعون المتشابه منه .

فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة ، وآرائهم الزائغة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليَضلّوا ويُضلّوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم فأثمر لهم العمل والمعارف فيعلمون أن القرآن كلّهُ من عند اللّه وأنّه كلّه حق مُحكمه ومتشابهه وأن الحقّ لا يتناقض ولا يختلف.

فَلِعلمْهمْ أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردّون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم وناقص المعرفة.

فيردّون المتشابه إلى المحكم فيعود كلّه محكماً ويقولون [آمنا به كل من عند ربنا] .

قال رحمه اللّه .

ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب ، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية والقصود السيئة »[١].

واللّه عز وجل يضرب الأمثال في القرآن ولا يفهمها ويعقلها إلا العالم.

قال تعالى :

﴿ وتلْك الأمثالُ نَضْرِبُها للنّاسِ وما يَعْقِلُها إلاّ العالِمون ﴾[٢].

---

(٢) الآية ٤٣ سورة العنكبوت .

(١) تفسير السعدي ج ٦ ص ٨٩ ـ ٩٠ .

قال السعدي رحمه الله .

« وهذا مدْحٌ للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبّرها وتعقّلها، ومدْحٌ لمن يعقلها .

وأنه عنوانٌ على أنّه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها فليس من العالمين .

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل الجليلة .

فأهل العلم يعرفون أنها أهمّ من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثّه عباده على تعقُّلها وتدَبُّرها فيبذلون جُهْدهم في معرفتها .

وأمّا مَنْ لم يعقِلْها مع أهمّيتها، فإن ذلك دليلٌ على أنّه ليس من أهل العلم، لأنّه إذا لم يعْرِفِ المسائلِ المهمّة، فعَدَمُ معرفَتِهِ غيرها من بابِ أولى وأحرى . ولهذا أكثر ما يضرّب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها »[١] .

والعالم العامل هو الذي يستمع إلى جنس القول فيميز الحسن من غيره .

ولقد مدح الله هؤلاء في كتابه فقال عز وجل :

(والّذين اجْتَنَبوا الطّاغوتَ أَنْ يَعْبُدوها وَأَنابوا إلى الله لهُمَ البُشْرى فبَشِّرْ عبادِ * الذّينَ يستمعونَ القَوْلَ فيتّبعونَ أَحْسَنَهُ أولئكَ الذينَ هَداهُمُ اللّه وأولئكَ هُمْ أُولوا الألبْابِ ﴾ [٢] .

قال السعدي رحمه الله .

---

(٢) الآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الزمر .

(١، ١) الآية ٢٣ سورة الزمر .

« وهذا جنسٌ، يشمل كل قول، فهُمْ يستمعون جنس القول، ليميزوا بين ما ينبغي ايثاره، مما ينبغي اجتنابه، فلهذا كان من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه .

وأحسنه على الإطلاق كلام اللّه، وكلام رسوله كما قال في هذه السورة .

﴿ اللّهُ نزّل أحسن الحديث كتاباً مُتشابها ﴾[١] .

وفي هذه الآية نكتة، وهي : أنّه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين، أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كأنه قيل هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب وحتى نعرف أن من آثره فهو من أولي الألباب ؟ .

قيل : نعم، أحسنه ما نصّ اللّه عليه بقوله ﴿ اللّهُ نزّل أحسن الحديث كتاباً مُتشابها ﴾[١] .

ثم قال رحمه اللّه .

ومن لبّهم وحزمهم ، أنهم عرفوا الحسن وغيره وآثروا ما ينبغي إيثاره على ما سواه .

وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقّل سوى ذلك، فإن الذي لا يميّز بين الأقوال حسنها وقبيحها ليس من أهل العقول الصحيحة أو الذي يميّز.

لكن لما غلبت شهوته على عقله فبقى عقله تابعاً لشهوته، فلم يؤْثِر الأحسن، كان ناقص العقل » [٢] .

---

(٢) تفسير السعدي ج ٦ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(١) الآيتان ١٦، ١٧ سورة محمد ﷺ .

وقد ذمّ اللّه عز وجلّ أقواماً كانوا يستمعون لرسول اللّه ﷺ وقلوبهم معرضة فلا يفقهون شيئاً مما يسمعون .

قال تعالى :

﴿ ومِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّى إذا خَرَجوا منْ عِنْدِكَ ، قالوا للّذينَ أُوتوا العِلْمَ ماذا قالَ آنفاً أولئك الّذينَ طبَعَ اللّهُ على قلوبهمْ واتّبعوا اهواءَهمْ * والذينَ اهتَدَوْا زادَهمْ هُدىً وآتاهم تَقْواهُم ﴾[١] .

قال السعدي رحمه اللّه في تفسيره

« وهذا في غاية الذمّ لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووَعَتْه قلوبهم وانقادت له جوارحهم ، ولكنهم بعكس هذه الحال ولهذا قال .

﴿ أولئك الذين طبع اللّه على قلوبهم ﴾ أي ختم عليها وسدَّ أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم ، التي لا يهْوَوْنَ فيها إلا الباطل »[٢] .

وبهذه النقول من كتاب ربنا عز وجل يتبين لنا أن العلم طريق لكل خير وعمل صالح وأن الجهل طريق لكل شرٍ وعمل مردود ومبتدع .

وننتقل إلى القلّة والكثرة في أحاديث نبينا ﷺ .

١ ـ الكثرة الهباء الغثاء .

عن ثوبان قال قال رسول اللّه ﷺ .

---

(٣) تفسير السعدي ج ٧ ص ٧٢ .

(١) اجتمعوا ودعا بعضهم بعضاً .

« يوشِكُ الأمُمُ أن تداعى[١] عَلَيكمُ، كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعتها » فقال قائل .

ومِن قلّةٍ نحنُ يومئذ ؟ قال :

« بل أنْتم يومئذٍ كثيرٌ ولكنكمْ غثاءٌ[٢] كغثاءِ السّيل ولَيَنْزعَن اللّهُ مِنْ صُدورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ منكمُ وليقذفنّ اللّهُ في قلوبكمُ الوهنَ » .

فقال قائل يا رسولَ اللّه وما الوهنُ؟

قال « حبُّ الدنيا وكَراهيةُ الْمَوْتِ »[٣] .

يحذر رسول اللّه ﷺ أمته من الخلود للدنيا وترك الجهاد في سبيل اللّه .

ولكنّه ﷺ يسلك في تحذيره طريقاً يجعلهم يتصورون الأمر حقيقة كأنهم يعايشونه .

عندما يوضع الطعام أمام المدعوين يبدأ صاحب الدعوة بدعوتهم لتناول الطعام، ويبدأ المدعون بدعوة بعضهم بعضا للبدء بتناول الطعام تكريماً لبعضهم البعض .

هدوء خلال الدعوة لتناول الطعام، فلا أحد يمنعهم من الطعام، ولا أحد يكدّر عليهم هذه الوليمة الفاخرة .

هكذا الأمر سيكون مع أعداء الإسلام قريباً فقد أوشكوا أن يدعو

---

(٢) الغثاء : ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره .

(٣) صحيح : رواه أبو داود، وابن عساكر، الروياني في مسنده عن ثوبان وفيه عندهم أبو عبد السلام مجهول وهو الراوي عن ثوبان لكن تابعه عند أحمد أبو أسماء الرحبي باسناد جيد وفيه المبارك بن فضالة وقد صرح بالتحديث فانتهت شبهة تدليسه . السلسة الصحيحة لشيخنا الألباني مجلد (٢) رقم ٩٥٨ .

(١) الايتان (٤٣ ، ٤٤) سورة الأنفال .

بعضهم بعضاً دون خوف ولا وجل لاستئصال شأفة المسلمين !.

الأمر جلل ! هل ستصل الحالة بنا أن نكون لقمة سائغة لأعداء الإسلام؟ هكذا بدا للصحابة من حديث رسول اللّه ﷺ .

أذن فلابد لنا أن نسأل رسول اللّه ﷺ عن السبب .

لا شك أننا قليلو العدد ومن هنا استهدفنا أعداؤنا .

ارتاحت نفوسهم لهذا التعليل فأرادوا التأكد من صحة استنتاجهم .

سألوا رسول اللّه ﷺ .

« ومن قلة نحن يومئذ » ؟ .

فالقلة بالمقاييس الدنيوية هي المستضعفة لا حول لها ولا قوة .

والقلّة مغريةٌ لأعداء اللّه فمقاييسهم دنيويةٌ بحتة فهُم الأكثر عدداً وعدة . . فالنصر حليفهم لا محالة وقد بيّن لنا ربنا عز وجل ذلك في كتابه قال تعالى :

﴿ إذ يُريكهم اللّه في منامك قليلاً ولو أراكَهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكنّ اللّه سلمّ إنّهُ عليم بذات الصدور * وإذ يُريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي اللّه أمراً كان مفعولاً وإلى اللّه ترجع الأمور ﴾ (١).

قال ابن كثير رحمه اللّه .

قال مجاهد أراهم اللّه إياه في منامه قليلاً وأخبر النبيّ ﷺ أصحابه

(١، ٢، ٣، ٤) تفسير ابن كثير مجلد (٢) ص ٣١٥ .

بذلك فكان تثبيتاً لهم (١).

وقال ابن كثير رحمه اللّه في الآية الثانية .

« وهذا ايضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم في رأي العين قليلاً فيجرّؤُهم عليهم ويطمعهم فيهم (٢). ثم قال

قال ابن أبي حاتم

حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الزبير بن الحارث(*) عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم ﴾ قال :

حضّض بعضهم على بعض » (٣).

ثم قال رحمه اللّه

وقال محمد بن أسحاق حدثني يحيى بن عباد بن عبد اللّه بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى :

﴿ ليقضي اللّه أمراً كان مفعولا ﴾ .

« أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته » (٤).

ثم قال رحمه اللّه

« ومعنى هذا أن اللّه أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلّلهُ في عينه

(*) ولم أعرفه ولعله محرّف وقد أكد لي ذلك أخي في اللّه يحيى بن محمد أمين كاظم بعد طول بحث منه حفظه اللّه في كتب الرجال أنه الزبير بن الخرّيت وليس الحارث وهو راوي التفسير عن عكرمة وهو ثقة فجزاه اللّه خيراً وأحسن إليه » .

وكان تاكيده لي عبر اتصال هاتفي يوم الثلاثاء ١٤ من محرم ١٤١٣هـ الموافق ١٤ من تموز ١٩٩٢م .

(١) الآية ١٣ سورة آل عمران .

ليطمع فيه وذلك عند المواجهة فلما التحم القتال وأيّدَ اللّه المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب المؤمنين ضعْفيْه كما قال تعالى .

﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل اللّه وأخرى كافرة يرونهم مْثلَيْهم رأي العين واللّه يؤيّدُ بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار ﴾ (١) . وهذا هو الجمع بين الآيتين فإن كلاً منهما حقٌ وصدق وللّه الحمد والمنّة » (٢) .

إذن فكل ما يحيط بالقلّة من أمور معروفة يجعلها السبب في تكالب الأمم على المسلمين فماذا كان جواب رسول اللّه ﷺ عن تساؤل أصحابه ؟

« لا بل أنتم يوْمئذ كثير » .

جواب من المعصوم ﷺ رفع من نفوسهم ما كانوا يتوقعونه؟

فالقلّة لن تكون سبباً رئيساً لتكالب أعداء اللّه عليكم .

ولم يكتف رسول اللّه ﷺ بذلك بل أراد أن يبين لهم بياناً شافياً أن الكثرة لن تغني عنهم شيئاً . « ولكنّكم غثاءٌ كغثاء السيل » .

كثرة تافهةٌ حقيرة هالكة أشبه ما تكون بمن ظلموا أنفسهم .

قال تعالى :

﴿ فأخذتهم الصيحْةُ بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين ﴾ (٣) .

كثرة كالزبد الذي يعلو السيل فهو وإن علا الماء فلا ثبات له .

---

(٢) تفسير ابن كثير مجلد (٢) ص ٣١٥ .

(٣) الآية (٤١) سورة المؤمنون .

(١) الآية (٤٣) سورة العنكبوت .

وهو وإن تكوّن فلا انتفاع منه بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي وتنسفه الرياح .

واللّه عز وجل يضرب لنا الأمثلة في كتابه لنعقلها ونتدبرها .

فقال عز وجل .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (١) .

وقد ضرب لنا عز وجل مثلين للحق في ثباته وبقائه وللباطل في اضمحلاله وفنائه .

فكان تشبيه الباطل بالزبد في ذهابه وعدم انتفاع الناس به .

وكان تشبيه الحق بما ينفع الناس في بقائه وانتفاع الناس به .

قال تعالى :

﴿ أنْزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فاحْتَملَ السّيْلُ زَبَداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابْتِغاءَ حلْيَةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُهُ كذلك يضرْبُ اللّه الحقّ والباطلَ فأمّا الزّبَدُ فيذهَبُ جُفاءً وأمّا ما يَنْفَعُ النّاس فيَمْكُث في الأرضِ كذلكَ يضرْبُ اللّهُ الأَمْثالَ ﴾ (٢) .

على كثرتهم يومئذ فهم غير مرهوبي الجانب نزع اللّه مهابتهم من صدور أعدائهم فأصبحوا في نظر أعدائهم محتقرين .

ولانحرافهم يومئذ عن منهج اللّه القويم ظهر عليهم أعداء اللّه من اليهود والنصارى .

---

(١) الآية ١٧ سورة الرعد .

من أراد المزيد في تفسيرها فليراجع تفسير ابن كثير مجلد (٢) ص ٥٠٨ .

(١) الآية ١٩٥ سورة البقرة وتمامها ﴿ وأحسنوا أنّ اللّه يحب المحسنين ﴾ .

وقذف الله يومئذ في قلوبهم الوهن فأحبوا الدنيا وتكالبوا عليها .

ألقوا يومئذ بأيديهم إلى التهلكة لأنهم أقاموا في أموالهم فأصلحوها وتركوا الجهاد في سبيل الله .

عن أسلم أبي عمران قال :

غزونا من المدينة ، نريد القُسْطَنطينيّة وعلى أهل مصر عقبةُ بن عامر وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والرومُ ملصقو ظهورهمْ بحائط المدينة ، فحملَ رجلٌ منّا على العدو فقال الناس مَه مَهْ لا إله إلا الله يلقى بَيدَيْه إلى التّهْلكَة فقالَ أبو أيوب الأنصاري إنما تأوّلونَ هذه الآية هكذا أن حملَ رجلٌ يُقاتلُ يَلْتمسُ الشهادةَ، أو يُبليَ من نفسه، إنما نزلت هذه الآية فينا معشرَ الأنصار، لما نصرَ الله نبيّهُ وأظهر الإسلام قلنا بيننا خفيّاً من رسول الله ﷺ : هلُمّ نقيمُ في أموالنا ونُصلحُها فأنزل الله تعالى :

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقوا بأيديكُمْ إلى التّهْلُكة ﴾[1].

فالإلقاءُ بالأيدي إلى التهلكة: أن نُقيمَ في أمْوالنا ونُصْلحها وندَعَ الجهادَ.

قال أبو عمران فلم يزل أبو أيوب يجاهد حتى دفن بالقسطنطينية »[2].

بل أنتم يومئذ كثير!

هل كان رسول الله ﷺ يتحدث عن زماننا هذا؟

المسلمون يربو عددهم على الألف مليون مسلم! فماذا أغنت عنهم هذه الكثرة ؟

---

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود وابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وإنما هو صحيح فقط لأن الشيخين لم يخرجا لأسلم السلسلة الصحيحة مجلد (١) ح (١٣) .

(١) الآيتان ٥١ ، ٥٢ سورة المائدة .

كثرة لم تجتمع على خير، بل تفرقوا شيعاً وأحزاباً ودويلات يكيد بعضها لبعض ويحارب بعضها بعضاً كثرة لا وزن لها في مجتمعات الكفر، بل هم محتقرون من أعداء اللّه عز وجل .

كثرةٌ حباها اللّه كل خير، في بطن الأرض وعلى سطحها وهو خير جلّه لأعداء اللّه ومعظم المسلمين يتضورون جوعاً في كل أنحاء العالم.

كثرة تداعت عليها أمم الكفر من كل حدب وصوب ساعية إلى إذلالهم وامتصاص خيراتهم كثرة استحرّ فيها القتل في كل مكان وولاة أمور المسلمين تناسوا ذلك فأنساهم اللّه أنفسهم .

أمرهم ربهم عز وجل برفع راية الجهاد فقالوا نحن مع الشرعية الدولية.

الشرعية الدولية تُقتِّلُ أبناءَ المسلمين وأنتم تنظرون !

الشرعية الدولية تقوم على أكتاف اليهود والنصارى وقد اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين .

ألم تسمعوا قول ربكم عز وجل .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليَهودَ والنّصارى أوْلياءَ بَعْضُهم أَوْلياءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يتولّهُمْ مِنْكُمْ فإنّهُ منهم إنّ اللّهَ لا يهدي القوْمَ الظالمين ﴾.

﴿ فترى الذين في قُلوبهم مَرَضٌ يُسارعونَ فيهم يقولون نَخشى أن تُصيبنا دائرة فعسى اللّهُ أنْ يَأْتيَ بالفَتحِ أو أمر من عِنْدِهِ فيَصْبحوا على ما أَسَرّوا في أنْفُسِهم نادمين ﴾ (١).

فهل حكمتم على أنفسكم بالنفاق؟ إن كنتم كذلك فانتظروا ندماً

---

(١) الآية ٢٢ سورة المجادلة .

يلاحقكم دنياً وآخرة .

وهل حكمتم على أنفسكم بالكفر بموالاتكم أعداء اللّه من اليهود والنصارى ؟

وهل حكمتم على أنفسكم بالكفر بوقوفكم في صفّ من حادّ اللّه ورسوله من أعداء اللّه؟ .

قال اللّه تعالى :

﴿ لا تجدُ قَوْماً يؤمنونَ باللّهِ واليَوْمِ الآخر يُوادّونَ مَنْ حادّ اللّهَ ورسوله وَلَوْ كانوا آباءَهُمْ أوْ أبناءَهُمْ أو إخوانهُمْ أو عشيرَتَهُمْ أولئك كتب في قلوبهمُ الإيمانَ وأيّدَهم بروحٍ منْه ويُدْخِلُهُمْ جنّاتٍ تجري منْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها رضيَ اللّهُ عنهم ورضوا عنّه أولئك حزْبُ اللّه ألا إن حزب اللّهِ هُمُ المفلحون ﴾ (١) .

المسلمون في همٍّ وغمٍّ ولن يُذهب اللّه عنهم الهمّ والغمّ الا بالجهاد في سبيل اللّه .

فعن عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ .

« عليكم بالجهاد في سبيل اللّه تبارك وتعالى فإنه باب من أبواب الجنّة يُذهب اللّه به الهمّ والغمّ »(٢) .

أمركم اللّه بالاجتماع على الحق والاعتصام بحبله المتين فأبيتم إلا التفرق والتمسك بالباطل اقتداء بأهل الكفر .

---

(٢) صحيح بطرقه رواه احمد ومن طريقه الهيثم بن كليب في مسنده والحاكم والضياء في المختارة. ولمزيد من التخريج تراجع السلسلة الصحيحة المجلد الرابع لشيخنا الألباني الأحاديث ١٩٤١، ١٩٤٢، ١٩٧٢ .

(١) الآيات ١٠٣ ـ ١٠٥ سورة آل عمران .

قال تعالى :

﴿ واعتصموا بَحبْل اللّه جَميعاً ولا تَفرَّقوا واذْكُروا نعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداء فَألّفَ بَيْنَ قُلوبكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بنعْمَته إخْواناً وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ منَ النّارِ فأنْقَذكُمْ مْنها كذلك يَبَيّنُ اللّهُ لَكُمْ آياته لَعَلّكُمْ تَهْتَدون* وَلْتَكُنْ مْنكُمْ أمّةٌ يَدْعونَ إلى الخَيْرِ ويَأمْرُون بالمْعْروف وَيَنْهَوْنَ عن المْنْكَرِ وأُولئكَ هُمُ المْفْلحونَ * ولا تكونوا كالذين تَفرّقوا واخْتلفوا منْ بعْدِ ما جاءَهُمُ البَيِّنات وأولئكَ لَهُمْ عَذابٌ عظيمٌ ﴾ (١).

قال ابن كثير رحمه اللّه

« ولا تفرقوا » أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة (٢). ثم قال رحمه اللّه.

« وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف » (٢).

ثم ذكر حديث أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ اللّهَ تعالى يَرْضى لَكُمْ ثَلاثاً، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثاً، فَيرَضى لَكُمْ أن تَعْبُدوهُ ولا تُشْركوا به شَيئاً وأَنْ تَعْتَصموا بَحبْلِ اللّه جَميعاً وَلا تَفرّقوا ، وأنْ تُناصحوا مَنْ وَلاّه اللّه أمْرَكُمْ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قيلَ وَقالَ وكثرةَ السُّؤالِ وإضاعَةَ المالِ » (٣).

فماذا أغنت عنكم الكثرة ؟

سؤال إجابته مطلوبة من بعض من يدْعونَ إلى الإسلام في زمننا وقد اغتروا بكثرة جماعتهم فما أغنت عنهم كثرتهم شيئاً .

---

(٢) تفسير ابن كثير مجلد (١) ص ٣٨٩ .

(٣) صحيح رواه أحمد ومسلم وهو في مختصر مسلم برقم ١٢٣٦ .

(١) الآية ١٢٠ سورة البقرة .

يجب أن يعلم كل مسلم على وجه الأرض أنه لا فرق بين الكفار في التداعي على الإسلام وإن اختلفت الأسماء .

فاليهود والنصارى والملاحدة والمجوس والهندوس وكل ملل الكفر واحدة في تداعيها على الإسلام فالكفر ملة واحدة .

ومعهم كل الفرق الباطنية ممن لبست لبوس الإسلام وهم أشد كيداً بالإسلام وأهله ممن أظهروا الكفر .

قال تعالى :

﴿ ولَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهودُ ولا النّصارى حَتّى تَتَّبع مِلَّتَهُم قُلْ إِنّ هُدى اللّهِ هُو الهُدى ولئن اتّبَعْتَ أَهْواءَهُم بعدَ الّذي جاءَكَ مِن العلْم مالَكَ مِنَ اللّهِ منْ وَلِيٍّ ولا نصير ﴾ (١) .

قال القرطبي رحمه اللّه في تفسيره .

« تمسّك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد بن حنبل على أن الكفر كلهُ ملّةٌ واحدة لقوله تعالى ﴿ ملّتهم ﴾ فوحّدَ الملّة » (٢) .

وقال ابن كثير رحمه اللّه تعالى في قوله عز وجل ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من اللّه من وليٍّ ولا نصير ﴾ .

« فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة عياذا باللّه من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته » (٣) .

---

(٢) تفسير القرطبي ج٢ ص ٩٤ .

(٣) تفسير ابن كثير مجلد (١) ص ١٦٣ .

٢ ـ الميزان في الإسلام

ليست الكثرة والقلّة بالميزان الذي يعرف به الحق ويُميّزُ به الباطل .

وليس المظهر (*) الخلاّب هو الحكم على الناس فمن كان كذلك فهو الحريّ بالزواج والحريّ بالمشورة .

وليس الغنى هو الوسيلة لدخول الجنّة وقبل ذلك اجتياز العقبة الكؤود .

الميزان في الإسلام هو التقوى فهي وسيلة المفاضلة بين الناس .

ليست القومية هي الميزان فمن كان عربياً فهو مقدّم على غير العربي .

ومن كان خليجياً فهو مقدّم على غير الخليجي .

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ سمع خطبة رسول اللّه ﷺ في وسط أيام التشريق فقال : « يا أيها النّاسُ ألا إنّ ربّكُمْ واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ ألا لا فَضْلَ لعَربي على أعجميّ ولا أعجميٍّ على عَربيٍّ ولا لأحْمَرَ على أسْود، ولا أسْودَ على أحمرَ إلاّ بالتقوى، أبَلّغْتُ؟ قالوا بلّغ رسولُ اللّهِ ﷺ ثم قال .

أيُّ يوْم هذا؟ قالوا يوْمٌ حرام ثُم قالَ أىُّ شهرٍ هذا؟ قالوا شَهْرٌ حَرامٌ قال

(*) يراجع لذلك كتاب المظهرية الجوفاء لأخينا حسين العوايشه حفظه اللّه .

ثمَّ قالَ أيُّ بَلَدٍ هذا قالوا بلدٌ حرامٌ قال فإنّ اللّهَ قَدْ حَرّمَ بَيْنكُمَ دماءَكمُ وأمْوالكمُ قالَ وَلا أدْري «أوْ أعراضكمُ أم »لا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هذا في شهْرِكُم هذا في بَلَدِكمُ هذا أبَلّغْت؟ قالوا بلّغ رسول اللّه ﷺ « «قال لِيُبلّغِ الشاهدُ الغائب» (١).

الرَّبُّ واحد، والأب واحد فمن كانوا كذلك فهم عبيد لربهم لا تفاضل بينهم في النسب إذن فأكرمهم عند اللّه هو أتقاهم قال تعالى:

﴿ يا أيّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْناكُم شعوباً وَقَبائلَ لِتَعارَفوا إنّ أكرْمَكُمْ عِنْدَ اللّه أتْقاكُم إنّ اللّه عَليمٌ خبيرٌ﴾ (٢).

فالأكرم عند اللّه هو الأتقى وهوما بيّنه لنا رسول اللّه ﷺ.

عن سمرة قال قال رسول اللّه ﷺ.

«الحَسَبُ المالُ والْكَرَمُ التَّقْوى» (٣).

وكان رسول اللّه ﷺ يغتنم كل ساعة ليعلّم أصحابه ويوجههم وأن لا يحكموا على أحد بالخير أو الشر أو يفضلون أحداً على أحد تبعاً للمظهر

---

(١) رواه احمد في المسند المجلد (٥) ص ٤١١ وقال شيخنا.

«هذا سند صحيح وجهالة الصحابي لا تضر كما هو معلوم ولذلك قال ابن تيمية في الاقتضاء اسناده صحيح».

غاية المرام ص ١٩١ ح ٣١٣.

(٢) الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات.

(٣) حديث صحيح لطرقه رواه الترمذى /ابن ماجة/ الدارقطني، الحاكم/ والبيهقي واحمد وهو في صحيح الجامع لشيخنا برقم ٣١٧٨.

ومعناه كما قال المناوي: الشيء الذي يكون به الإنسان عظيم القدر عند الناس هو المال والذي يكون به عظيماً عند اللّه هو التقوى.

الخارجي فإن المظاهر غالباً ما تكون خادعة .

عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال :

« مرّ رجُل على رسول اللّهَ ﷺ فقالَ لرَجُل عنْدَهُ جالسٍ ما رأيُكَ في هذا؟ فقال: رَجُلٌ من أشْراف النّاس، هذا واللّه حَريٌّ إنْ خَطَبَ أن يُنْكَحْ وإنْ شَفَعَ أنْ يُشفّعْ . قال فَسَكَتَ رسولَ اللّه ﷺ ثمَّ مرّ رجلٌ فقال له رسولُ اللّه ما رأيُكَ في هذا؟ فقال يا رسول اللّه هذا رَجُلٌ من فُقَراءِ المسْلمين هذا حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ لا يُنكَحَ، وإن شَفَعَ أن لا يُشَفّعَ وإن قالَ أنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِه. فقال رسول اللّه ﷺ .

« هذا خيرٌ من ملءْ الأرْضِ من مثْلِ هذا » (١).

جوابُ فيه تأديبٌ لنا أن لا نحكم على الناس بمظاهرهم وأموالهم وأحسابهم، فكل ذلك لا وزن له عند اللّه تبارك وتعالى :

فرجلٌ لا يؤبه له، فقير، لا يُسمع له إن تكلّم، ولا يفكر أحد بتزويجه عَدَلَهُ رسول اللّه ﷺ بل فضّله على ملء الأرض رجالاً أغنياء ، تفسح لهم صدور المجالس، وتُلَبّى طلباتهم، ويُسمع لهم وان كانوا هَدَرَة (*).

ذلك أن الميزان عند رسول اللّه ﷺ هو التقوى .

ملءُ الأرض لم يغترّ بهم رسول اللّه ﷺ ففضل عليهم اشعث أغبر لا يؤبه له.

فأين الكثرة في ميزان الإسلام يا دعاة الكثرة ؟ .

---

(١) رواه البخاري وابن ماجة وهو في فتح الباري برقم ٦٤٤٧ باب فضل الفقر كتاب الرقاق مجلد ١١ .

(*) ساقطون ليسوا بشيء .

٣ ـ من هم الغرباء

عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ .

« طوبى للغُـرباءِ »، قـيلَ : وَمَنِ الغُـرَباءُ يا رسـول اللّه؟ قـال : « ناسٌ صالحونَ قليلٌ في ناسِ سوءٍ كثيرٍ، مَنْ يَعْصيهِمْ أكْثَرُ مِمَّنْ يُطيعُهُمْ » (١).

طوبى للغرباء!

مَن هؤلاء الذين وعدهم ربهم بالجنّة؟

أَهُمُ الكثرة الهباء الذين احتقرهم أعداؤهم فلم يقيموا لهم وزنا؟.

أَهُمُ الذين يتسـمـوّن بالمسلمين وهم لا يقـيـمـون وزناً للإسـلام في حياتهم؟

أهُمْ من يعبدون رباً لا يعرفونه بعد أن جردّوه باسم التنزيه من كل صفات الجلال والكمال والعظمة التي وصف نفسه بها ووصفه بها رسوله؟.

هل هم الرافضة الذين ابتدعوا ديناً وصدّقوه وكذبوا بما أنزل على

---

(١) حديث صحيح رواه احمد، وابن عساكر، واسناد ابن عساكر جيد وإن كان فيه ابن لهيعة فهو صحيح الحديث إذا روى عنه أحد العبادلة وهذا من رواية عبدالله بن المبارك عنه. السلسلة الصحيحة مجلد (٤) ح ١٦١٩ .

محمد ﷺ ؟

هل هم الذين اتخذوا من شتم أصحاب محمد ﷺ وتكفيرهم ديناً يتقربون به إلى اللّه عز وجل؟

هل هم الذين حكموا عقولهم في ردّ أحاديث رسول اللّه ﷺ الصحيحة بزعم أنها تخالف عقولهم المريضة ؟

هل هم الذين يدْعون للإسلام وجلُّ همّهم أن يعلوا في الأرض ؟

هل هم الذين يدعون للإسلام وهم يجهلون فيكثرون سواد الجهّال من المسلمين ؟ .

هل هم الذين ولاّهم اللّه عز وجل شؤون المسلمين فاستبدلوا دين اللّه بالقوانين الوضعية وحكموّها في حياة المسلمين ؟.

هؤلاء جميعاً ليسوا هم الغرباء .

الغرباء ناس صالحون قليل !

هكذا وصفهم رسول اللّه ﷺ وصفهم بالصلاح والقلة .

الغرباء هم

العباد الصالحون هم المتقون .

الغرباء هم أصحاب القلوب العليمة والرحيمة .

فبالعلم خرجت قلوبهم عن المرض وهو مرض الشبهات والشكوك والشهوات .

وبالرحمة خرجت قلوبهم عن القسوة .

فهم بهذا خالفوا المنافقين والكافرين .

الغرباء هم آنية اللّه في الأرض كما وصفهم رسول اللّه ﷺ .

عن أبي عنبة الخولاني قال قال رسول اللّه ﷺ .

« إنّ للّه آنية منْ أهْل الأرْض وآنيةُ ربّكُمْ قلوبُ عباده الصّالحينَ وأحَبُّها إليُه أَليْنُها وأرَقهُّا » (١) .

الغرباء هم من ساروا على نهج أصحاب محمد ﷺ في فهم كتاب ربهم عز وجل وسنة نبيهم ﷺ .

وقفوا حيث وقف أصحاب محمد ﷺ فهم عن يقين وقفوا .

وسعهم ما وسع أصحاب محمد ﷺ فسكتوا عما سكتوا عنه .

وصفوا ربهم بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، لأنهم علموا أن لا أعلم باللّه بعد اللّه من رسول اللّه ﷺ .

لزموا السنّة وتركوا ما أحدثه أصحاب البدع وعلموا أن الهدى فيما كان عليه أصحاب محمد ﷺ .

ثبتوا على الحق ولا يزالون كذلك حتى يلقوا ربهم إن شاء اللّه تعالى .

وما أحسن ما كتب عمر بن عبدالعزيز لرجل كتب إليه يسأله عن القدر .

« أما بعد ، أوصيك بتقوى اللّه، والاقتصاد في أمره واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنتهُ ، وكفوا مُؤْنَتَهُ فعليك بلزوم السنّة فإنها لك ـ بإذن اللّه ـ عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة، إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها فإن السنّة

---

(١) حديث حسن: أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي عنبة الخولاني واسناده قوي رجاله ثقات اثبات غير بقية وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء ولكن صرح بالتحديث فأمنا شر تدليسه . ولزيادة علم تراجع السلسلة الصحيحة مجلد ٤ ح ١٦٩١ .

إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمّق، فارض لنفسك ما رضي القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولَهُمْ على كشف الأمور كانوا أقوى وبفضل ما كانوا فيه أولى فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه.

ولئن قلتم: إنما حدث بعدهم. ما أحدثه إلا من اتّبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونَهُم مِن مَقْصَرٍ، وما فوقهم من مَحْسَر، وقد قصّر قوم دونهم فَجَفَوا، وطمح عنهم أقوام فَغَلَوْا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم.

كتبتَ تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير - بإذن اللّه - وقعت، ما أعلم ما أحدث الناس من محدَثَةٍ، ولا ابتدعوا من بدْعة، هي أبْيَن أثراً، ولا أثبت أمراً من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره في الجاهليةِ الجهلاء، يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم، يعزّون به أنفسهم على ما فاتهم، ثمّ لم يزده الإسلام بعدُ إلا شدّة، ولقد ذكرَهُ رسولُ اللّه ﷺ في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون، فتكلموا به في حياته وبعد وفاته، يقيناً وتسليماً لربهم، وتضعيفاً لأنفسهم، أن يكون شيء لم يُحط به علمه، ولم يُحْصه كتابه، ولم يمضي فيه قدره، وإنه مع ذلك لفي محكم كتابه منه اقتبسوه، ومنه تعلمّوه.

ولئن قلتم: لم أنزل اللّه آية كذا، ولم قال، كذا لقد قرأوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك: كلُّه بكتاب وقدر، وكُتِبَت الشقاوة وما يُقْدَرُ يكن، وما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن،

ولا نملك لأنفسنا ضراً ولانفعاً ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا» (١).

هذا هو طريق الغرباء ، طريق أصحاب محمد ﷺ ومنهجهم .

الغرباء هم القلة ولا عجب، فالطريق صعب ولكنه الحق .

والسير على هذا الطريق يحتاج إلى صبر، والقلة هم من يصبرون .

السير على هذا الطريق يحتاج أن تدفع من أساء إليك بالإحسان .

قال تعالى :

﴿ ولا تَسْتَوي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالّتي هِيَ أحْسَنُ فإذا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَة كَأنّهُ وَليٌّ حميمٌ * وما يَلقّاها إلاّ الذينَ صَبَروا وَما يُلقّاها إلاّ ذو حَظٍّ عظيم ﴾ (٢).

والصبر هو صفة خاصة أولياء اللّه وقليل ما هم .

قال عزّ وجل عن أيوب عليه السلام .

«إنّا وجدناه صابراً نعم العبْدُ إنه أواب (٣) والصبر صفة أولى العزم من الرسل وهم صفوة أنبياء اللّه ورسله وهم قلّة .

قال تعالى :

﴿ فاصْبرْ كما صَبَرَ أولو الْعَزْمِ منَ الرُّسُلِ ولا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ (٤).

هم غرباء في مجتمعهم لأنهم خالفوا الغالبية شكلاً ومضموناً، عقيدة وسلوكاً ومنهجاً .

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي الصلت وهو صحيح مقطوع وهو في صحيح أبي داود برقم ٣٨٥٦.

(٢) الآيتان ٣٤، ٣٥ سورة فصلت .

(٣) الآية ٤٤ سورة ص .

(٤) الآية ٣٥ سورة الأحقاف .

اهتموا بالمظاهر التي أمر الإسلام بها واعتبرتها الكثرة شكليات .

أعفوا لحاهم وقصوا شواربهم وقصروا ثيابهم وهي مظاهر أمر الإسلام بالتزامها .

وخالفوا الكثرة بالتزامهم الكتاب والسنة وخالفوا كثيراً ممن التقى معهم في المظاهر الخارجية في المنهج الذي انتهجوه .

فهموا الكتاب والسنة على ضوء فهم أصحاب رسول اللّه ﷺ .

وقعوا بين نارين .

نارُ الكثرة السوء الفاسدة التي لا تحب سماع كلمة الإسلام وتسعى جاهدة لهدمه .

ونارُ من التقوا معهم في المظاهر الخارجية وخالفوهم في منهجهم، وهي الأشدّ عليهم والأخطر .

هؤلاء هم الغرباء صلَحوا حيث فسد الناس وما ذلك إلا بتوفيق اللّه وهدايته لهم .

عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه ﷺ .

«إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» قيل : من هم يا رسول اللّه؟ قال «الذين يصْلُحون إذا فسد الناس» (١).

الغرباء هم الطائفة المنصورة التي وصفها رسول اللّه ﷺ بأنها على الحق حتى تقوم الساعة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو عمر والداني في «السنن الواردة في الفتن» بهذا السياق.
وقد أخرجه بدون السؤال مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة والترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود وابن ماجة عن أنس وغيرهم وهو في صحيح الجامع برقم ١٥٨٠ .

عن معاوية قال قال رسول اللّه ﷺ «لا تَزالُ طائفَةٌ مِنْ أُمَّتي قائمَةٌ بأمرِ اللّهِ، لا يَضُرّهُم منْ خذَلَهُمْ وَلا مَنْ خالفَهُمْ حتّى يأْتِيَ أمرُ اللّهِ وهُمّ ظاهِرونَ على النّاس»(١).

هؤلاء هم الغرباء نسأل اللّه أن يجعلنا منهم من هذه القلّة المنصورة.

* * *

(١) رواه أحمد والشيخان وزاد أحمد.

«فقامَ مالك بن يخامر السكسكي فقال يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية - ورفع صوته - هذا مالك يزعم أنه سمع معاذا يقول: وهم أهل الشام.

وقد فسرت طائفة من أهل العلم الطائفة المنصورة بأنهم أهل الحديث ومنهم عبداللّه بن المبارك، على بن المديني، أحمد ابن حنبل، أحمد بن سنان الحافظ الثقة، محمد بن إسماعيل البخاري وقد نقل أقوالهم وأقوال غيرهم شيخنا حافظ الوقت محمد ناصر الدين الألباني في كتابه السلسلة الصحيحة ح ٢٧٠.

٤) الكثرة المؤدية للفرقة

أيمكن أن يكون هذا؟ فهل تؤدي الكثرة يوماً للتشرذم ؟

الأمر يبدو غريباً وسرعان ما يزول ذلك ونحن نسمع حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه .

عن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه قال:

« كيف بكم إذا لبستكم فتنة، يربو فيها الصغيرُ، ويهرم فيها الكبيرْ، وَتُتخَذُ سنّة ، فإن غيرِّت يوماً قيل هذا منكر قيل ومتى ذلك؟ قال إذا قلّت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكمُ، وقلّت فُقهاؤكم، وكثرتْ قراؤكمُ، وتُفُقّهَ لغيْرِ الدّين، والتمستِ الدّنيا بعمل الآخرة » (١).

يزول العجب وأنت تقرأ هذا الحديث المرفوع حكماً فقد بين رسول اللّه ﷺ كيف تكون الكثرة سبباً للفرقة .

كثرة الأمراء تدلّ دلالة واضحة على تشرذم الأمة وانقسامها .

فالأصل في دولة الإسلام أن تكون واحدة لها خليفة واحد، يعاونهُ ولاةُ لادارة شؤون دولة الإسلام .

---

(١) حديث صحيح رواه الدارمي بإسنادين أحدهما صحيح والآخر حسن والحاكم وغيرهما وهو موقوف على ابن مسعود مرفوع إلى النبي ﷺ حكماً .

« قيام رمضان » لشيخنا الألباني ص ٤ .

فها هي بلاد المسلمين دويلات بينها حدود مصطنعة يذيقون عباد اللّه عندها الويلات .

كثر حاملو القرآن غير العاملين بأوامره الذين لا ينتفعون به ويقرؤونه في مواطن الشبه، وأماكن الفسق ومجالس اللهو واللعب .

كان القرّاءُ في عهد الصحابة هم العلماء العباد العاملون هم أهل العلم والفقه .

عن حذيفة رضي اللّه عنه قال :

يا مَعْشَرَ القرّاء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللْتم ضلالاً بعيداً» (١).

كثر القراءُ المنافقون، الذي يتأولونه على غير وجهه ويضعونه في غير مواضعه .

كثر القراء الذين يحفظون القرآن تقية للتهمة عن أنفسهم وهم معتقدون خلافه .

كثر القراءُ القائلون من خير منا ومن أعلم منا وهؤلاء هم وقود النار كما بين ذلك المصطفى عليه السلام .

عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ .

« يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيلُ في سبيل اللّه ، ثمّ يظهر قومُ يقرؤون القرآن ، يقولون من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقهُ منا؟ ثمّ قال لأصحابه .

---

(١) رواه البخاري وهو في الفتح ج ١٣ ح ٧٢٨٢ .

«هل في أولئك من خير؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم .

قال أولئك منكم من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار». (١).

قلّ الأمناءُ فكثر الخونةُ وفشت الخيانة فقلّ من يؤدي الأمانة .

قلّ الفقهاء فاتخذ الناس رؤوساً جهالاً ولكثرتهم ظنهم الناس علماء .

قلّ الفقهاء العاملون للّه بما يعلمون لأن التفقه بات لالتماس الدنيا .

فإلى ماذا أدت الكثرة يا دعاة الكثرة، المتفاخرين بها ؟

* * *

(١) حسن رواه الطبراني في الأوسط والبزار وقال المنذري اسناده لا باس به وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب برقم (١٣٠) .

٥) القلّة هم من يردون حوض نبينا ﷺ .

أيها العاملون اعملوا ليوم الحساب !

اعملوا لذلك اليوم الذي تحتاجون فيه لشربة الماء اسلكوا نهج أصحاب محمد ﷺ ليكون العمل مقبولاً .

إياكم وما ابتدع في دين اللّه فلن يقرّبكم من اللّه زلفى .

إياكم وما ابتدع في دين اللّه فسيمنعكم ورود الحوض .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

«بَيْنا أنا نائمٌ، فإذا زُمرةٌ (١)، حتَى إذا عرفتُهم خرجَ رجلٌ (٢) من بينى وبينهم فقال هَلُمّ، فقلت أيْن؟ قال إلى النّار واللّه، قلْتُ وما شأنُهُم؟ قال إنّهم ارتدّوا بعْدَكَ على أدْبارهمُ (٣). القَهْقَرى . ثمّ إذا زُمْرَةٌ، حتى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم فقال هَلُمَّ قلت أيْن؟ قال إلى النار واللّه. قلت ما شأنهم؟ قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا

---

(١) الزمرة : الفوج من الناس والجماعة من الناس .

(٢) رجعوا إلى الخلف أي تركوا الصراط المستقيم إلى اتباع السبل .

(٣) المراد بالرجل الملك الموكل بذلك .

أراه يخلص منهم إلا مثلُ همل النّعم» (١).

لن يردَ حوض محمد ﷺ إلا القليل القليل من الجموع المتدفّقة عليه فيُصَدّون عنه ويُجْلَون عنه .

فماذا يقول أصحاب البدع والضلالات وهم يسمعون هذا الحديث؟

سيقولون بلا شك إلا من أراد اللّه له التوبة منهم لسنا أصحاب هذا الحديث .

نحن سنرد الحوض والمتشددون والمتطرفون هم الذين سيُصَدّون عن الحوض .

الم يسمعوا حديث رسول اللّه ﷺ في حجب التوبة عنهم .

عن أنس قال قال رسول اللّه ﷺ .

«إن اللّه حجب التوبة عن كل صاحب بدعةٍ حتى يدع بدعته» (٢).

أيها المتفاخرون بالكثرة .

تذكروا الحوض وأنه لن يرده إلا القليل .

---

(١) رواه البخاري وهو في الفتح برقم ٦٥٨٧ ج ١١.

فائدة: قال الحافظ في الفتح ج١١ ص ٤٧٤ في تفسير «فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم» يعني من هؤلاء الذين دنوا من الحوض وكادوا يردونه فصدوا عنه والهَمَل ألإبل بلا راع وقال الخطابي الهمل ما لا يرعى ولا يستعمل ويطلق على الضوال، والمعنى أنه لا يرده منهم إلا القليل ، لأن الهمل في الإبل قليل بالنسبة لغيره».

(٢) صحيح رواه الطبراني في الأوسط وجمع ذكرهم شيخنا في السلسلة الصحيحة من طرق عن هارون بن موسى حدثنا أبو ضمرة عن حميد عن أنس مرفوعاً وقال شيخنا.

وهذا اسناد صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير هارون بن موسى وهو الفروى قال النسائي «لا بأس به» . وهذا اللفظ . ساقه المنذري في الترغيب .

لن يرده من دعا إلى التجمع على غير نهج أصحاب محمد ﷺ ومات على ذلك .

لن يرده من جعل من شتم أصحاب محمد ﷺ قربات يتقرّب بها إلى اللّه عز وجل .

لن يرده من صارت السنّة عندهم بدعة والبدعة سنة .

لن يردَهُ من استبدلوا حكم الله عز وجل بقوانين شرعوها من عند أنفسهم وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعاً .

القلة هي الواردة حوض نبينا ﷺ .

القلة هي الواردة لأنها تمسكت بصراط اللّه المستقيم وتركت السبل جانباً .

القلة الواردة هي التي اتخذت من طريق أصحاب رسول اللّه ﷺ منهجاً سارت عليه .

القلّة الواردة هي التي ربّت نفسها على الإسلام الصحيح .

القلّة الواردة هي التي ثبتت على الحق أمام السيل الجارف من البدع والضلالات .

فتعالوا جميعاً نجعل رسول اللّه ﷺ حكماً بيننا .

هذه سنته بين أيدينا وهذا فهم أصحابه رضوان اللّه عليهم .

عن عبداللّه بن مسعود قال :

خطّ لنا رسول اللّه ﷺ خطّاً ثم قال

« هذا سبيل اللّه »، ثمّ خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال : « هذه سبل، على كل سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه (١) وقرأ » وأن هذا صراطى

---

(١) اسناده حسن رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير عاصم وهو ابن أبي النجود =

مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١).

فهلاً أيها المتفاخرون بالكثرة رميتم بالهوى وراء أظهركم وجلستم لتعرفوا الحق .

عندها يهون الخطب وتجتمع الكلمة فما تفرقت كلمة الأمة إلا بسبب الهوى كما بينه لنا المصطفى ﷺ .

عن أبي عامر الهوزني أنه حج مع معاوية فسمعه يقول قام فينا رسول اللّه ﷺ يوماً فذكر :

« أنّ أهل الكتاب قبلكم تفرّقوا على اثنتينْ وسبعين فرقةً في الأهواء، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقةً في الأهواء كلّها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة ألا وإنهُ يخرجُ في أمتي قوم يهْوَوْن هوى يتجارى بهم ذلك الهوى كما يتجارى الكلب يصاحبه لا يدع منه عرقاً ولا مفصلاً إلا دخله » (٢).

= وهو حسن الحديث ومن طريقه أخرجه ابن نصر في « السنة » والحاكم وقال صحيح الأسناد ووافقه الذهبي وللحديث طريق أخرى عن جابر رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة وابن نصر في السنة وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف (كتاب السنة لابن أبي عاصم بتحقيق شيخنا).

(١) الآية ١٥٣ سورة الأنعام .

(٢) حديث صحيح لغيره قال شيخنا رجاله ثقات غير أن ابن مصفّى واسمه محمد الحمصى القرشي صدوق له أوهام وكان يدلس لكنه قد صرح بالتحديث ومثله بقية وهو ابن الوليد لكنه صرح بالتحديث عند أبي داود في سننه : ثنا عمرو بن عثمان ثنا بقية قال حدثني صفوان وتابعه أبو المغيره قال حدثنا صفوان به أخرجه أبو داود وأحمد فالإسناد صحيح (تخريج السنة).

٦) قلّة الدنيا والموقف هم أكثر أهل الجنة

آن للقلّة أن تقطف ثمار صبرها !

آن للقلّة أن ترتاح !

آن للقلّة أن تتنعمّ !

آن للقلّة أن تنال جزاءها من اللّه تبارك وتعالى .

لقد آن للقلّة أن تتحقق لها بشرى رسول اللّه ﷺ .

لقد بشرهم رسول اللّه ﷺ بأنهم أكثر أهل الجنة وإن كانوا لا يكادون يظهرون في الناس عند الموقف .

عن عمران بن الحصين قال :

« كنا مع النبي ﷺ في سفر فَتفاوتَ بين أصحابه في السيّر، فرفع رسول اللّه ﷺ صوته بهاتين الآيتين .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم ﴾ . إلى قوله « ولكن عذاب اللّه شديد » (١).

فلما سمع ذلك أصحابه حثّوا المطيّ وعرفوا أنهُ عند قول يقوله . فقال .

---

(١) الآيتان ١,٢ من سورة الحج .

« هل تدرون أيُّ يوم ذلك؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم » قال: « ذلك يومٌ ينادي اللّه فيه آدمَ فيناديه ربُّهُ فيقول: يا آدم ابْعثْ بعْث النار فيقول: أىْ ربِّ وما بَعثُ النار؟ فيقول من كلّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعَةٌ وتسعون إلى النّار، وواحدٌ إلى الجنّةِ » فيئس القومُ حتّى ما أبدوا بضاحكة. فلما رأى رسول اللّه ﷺ الذي بأصحابه قال:

« اعملوا وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، إنّكم لمعَ خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم، وبني إبليس ».

قال: فَسُرِّى عن القوم بعضُ الذي يجدون، قال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشّامةِ في جنْب البعير أو كالرّقْمَةِ (١). في ذراع الدابة » (٢).

هذه القلة بشّرها رسول اللّه ﷺ بأنهم شطر أهل الجنّة.

فعن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ.

« يقولُ اللّه: يا آدم! فيقول لبيْكَ وسعدَيْكَ والخيْرُ في يدْيكَ! قال، يقولُ: أخرج بعْث النّار، قال وما بعْثُ النار؟ قال: من كلِّ ألف، تسعمائةٍ وتسعَةً وتسعينَ، فذالك حين يشيبُ الصغيرُ، وتضعُ كلُّ ذات حمل حملَها، وترى النّاس سكارى وما هم بسُكارى ولكنّ عذابَ اللهِ

---

(١) الرّقمة: قال في النهاية الرّقمة هنا الهَنَةُ الناتئة في ذراع الدابة من داخل أو هي قطعة بيضاء أو مستديرة لا شعر فيه يكون في ذراع الحمار.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي ورواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد بنحوه وهو الآتي بعده.

شديدٌ» فاشْتَدَّ ذلك عَليْهم، فقالوا يا رسولَ اللّه! أيّنا ذلك الرَجُل؟ قال: «أبْشروا فإنّ من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنْكم رجلٌ» ثمّ قال: «والذي نفسي في يده إني لأَطْمع أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنّة»، قال فحمدنا اللّه وكبرْنا، ثم قال «والذي نفسي في يده إني لأطْمعُ أنْ تكونوا شطْر أهلِ الجنَة، إنّ مَثَلَكُمْ في الأُمم كمثل الشعرة البيضَاء في جلدِ الثور الأسود، أو الرَّقْمَةِ في ذراع الحمار» (١).

وقد تدَرّج رسول اللّه ﷺ في بشارته لأصحابه ليكونَ أعظم لسرورهم.

فقد رضوا أن يكونوا ربُعَ أهل الجنّة، فزادهم رسول اللّه إلى الثلث فرضوا ثم بشرهم رسول اللّه ﷺ أنهم شطر أهل الجنة.

فعن عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: كنّا مع النّبيِّ ﷺ في قبّة فقال: أترْضونَ أن تكونوا رُبُعَ أهْل الجنّة؟» قلنا نعَمْ، قال «أترْضوْن أن تكونوا شَطْرَ (*) أهل الجنّة؟» قلنا نعمْ قال:

«والذي نفسُ محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أنّ الجنّة لا يدخلها إلا نفسٌ مُسْلِمةٌ، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعَرَةِ البيْضاءِ في جلْدِ الثّوْر الأسود، أوْ كالشّعَرَةِ السَّوْداءِ في جلْدِ الثّوْرِ الأحمرِ» (٢).

بل تعدّت بشرى رسول اللّه ﷺ للقلّة المؤمنة شطر أهل الجنة إلى

(*) نصف أهل الجنة.

(١) صحيح متفق عليه وهو في اللؤلؤ والمرجان برقم ١٣٣ تنبيه: قال الحافظ رحمه اللّه «في ذلك دلالة على أنهم استبشروا بما بشّرهم به فحمدوا اللّه على نعمته العظمى وكبرّوه استعظاماً لنعمته بعد استعظامهم لنقمته». فتح مجلد ص ٣٨٧.

(٢) متفق عليه وهو في اللؤلؤ والمرجان برقم ١٣٢.

الثلثين.

فعن بريدة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ .

« أهلُ الجنّة عشرون ومائة صف ثمانون منها منْ هذه الأمّة وأربعون من سائرِ الأمَم » (١).

انقلب الحال فأصبحت القلّة في الدنيا وبين الأمم في الموقف هي الكثرة من أهل الجنّة .

فمن امتلأ قلبه يقيناً آثر الباقي على الفاني آثر الآخرة على الدنيا ، كان على نهج القلّة الذي هو نهج أصحاب محمد ﷺ .

والأقلُّ من هذه القلّة « التي هي أكثر أهل الجنة » من يدخلون الجنة أولاً بغير حساب ولا عذاب .

عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ .

« عرضتْ عليّ الأُمم، فأخذ النبيُّ يمرُّ معه الأُمّة، والنبيُّ يمرُّ معَهُ النّفرُ، والنّبيُّ يمُرُّ مَعَهُ العشرةُ، والنبيُّ يمُرُّ معه الخمسْةُ ، والنبيُّ يمُرُّ وحْدَهُ، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قلتُ: يا جبريلُ هؤلاء أُمتّي؟ قال: لا، ولكنِ انظَرْ إلى الأفق، فنَظَرْتُ فإذا سوادٌ كثيرٌ، قال هؤلاء أُمَّتُكَ، وهؤلاء سبعونَ ألفاً قُدّامَهُمْ لا حسابَ عليْهم ولا عذاب. قلْتُ ولَمَ؟ قال: كانوا لا يكتوونَ، ولا يسترقونَ (٢)، ولا يتطَيّرون (٣)، وعَلى ربِّهم يتوكلون. فقامَ إليهِ

---

(١) حديث صحيح رواه احمد، الترمذي، ابن ماجة، ابن حبان، الحاكم عن بريدة كما رواه الطبراني عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أبي موسى وهو في صحيح سنن الترمذي لشيخنا الألباني حفظه اللّه برقم ٢٠٦٥ .

(٢) أي يطلبون من غيرهم أن يرقيهم .

(٣) لا يتشاءمون من شيء كما كانوا يفعلون في الجاهلية .

عُكّاشة بنُ مِحْصَن فقال ادْعُ اللّه أن يجعلني منهم. قال اللهم اجعله منهم. ثمّ قام إليهِ رَجُلٌ آخرُ فقال: ادْعُ اللّه أن يجعلني منهُم قال: سبقك بها عُكاشةُ»(١).

* * *

(١) رواه أحمد والشيخان واللفظ للبخاري وهو في الفتح برقم ٦٥٤١ .

٧) القلّة عند اجتماع قوم على ضلالة

عندما يتنكّب الناس الطريق وينحرفون عن الحق يختلف انحرافهم بعداً عن الحق وأقتراباً منه فتجد القليل منهم هو من كان انحرافه عن الحق يسيراً والكثرة من كان انحرافها شديداً .

ولنا فيما قصّ علينا القرآن من القصص عبرة فها هم أخوة يوسف قد أجمعوا على قتله فاتبرى أحدهم رافضاً فكرة القتل فهم وإن كانوا في تلك اللحظات يبغضون يوسف لاستئثاره بحب أبيهم، إلا أنه من وجهة نظر هذا الأخ لا يزال أخاً لهم، فإذا كانوا يقصدون إبعاده عن أبيه لينالوا حبه فليكن الإبعاد بوسيلة غير القتل .

لتكن الوسيلة تخبيء في ثناياها أملاً في نجاته أملاً في أن ينقذه بعضهم .

فوجّه خطابه لإخوته «لا تقتلوا يوسف» وأعطاهم البديل.

﴿ وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين ﴾.

فكان هذا الأخ وهو فرد بين الإخوة وهم الكثرة هو الأقل انحرافاً عن الحق في هذا الموطن».

قال تعالى :

﴿لقدْ كان في يوسُفَ وأخْوَته آياتٌ للسائلين * إذْ قالوا ليوسفَ وأخوهُ أحَبُّ إلى أبينا منّا ونحنُ عُصْبَة إن أبانا لفي ضلالٍ مبين * اقْتُلوا يوسُفَ أو اطرحَوهْ أرْضاً يخْلُ لكمْ وَجْهُ أبيكم وتكونوا منْ بعده قوماً صالحينَ * قال قائلٌ منْهم لا تقتلوا يوسُف وألْقوهُ في غَيابَةِ الجُبِّ يلتقطْهُ بَعْضُ السيّارَةِ إن كنتم فاعلين﴾ (١).

قال السعدي رحمه اللّه في تفسير الآية الأخيرة أي «قال قائل» من أخوة يوسف ، الذين أرادوا قتله أو تبعيده «لا تقتلوا يوسف» فإن قتله أعظم إثماً وأشنع .

والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه ، من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه [في غيابة الجب] وتتوعدوه، على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبدٌ مملوك آبق، لأجل أن «يلتقطه» بعض السيارة» الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحتفظوا فيه .

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرّهم وأتقاهم في هذه القضية .

فإن بعض الشرّ أهون من بعض، والضرر الخفيف يُدْفع به الضرر الثقيل(٢).

* * *

(١) الآيات ٧ ـ ١٠ سورة يوسف عليه السلام .

(٢) تفسير السعدي ج ٤ ص ٩ .

٨) عليك بالطيب وإن قل واترك الخبيث وإن كثر

لا يهولنّك أيها المؤمن كثرة الكفار فإنهم من قسم الخبيث .

ولا تغُرّنك كثرتهم فإنهم لا وزن لهم عند اللّه ولا تعجب بكثرة أموالهم وأولادهم فهي وبال عليهم .

عليك بالإيمان فإنه طيب .

كن مع الصادقين فإنهم الطيب .

فتش عن الرزق الحلال فإنه الطيب واللّه لا يقبل الا الطيبّ .

لا تزدري القليل فلعل الخير كلّ الخير فيه .

وهذه آيات من كتاب ربنا عز وجل وأحاديث لنبينا ﷺ تبين ذلك كله .

قال تعالى :

﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا اللّه يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

---

(١) الآية ١٠٠ سورة المائدة .

قال الألوسي رحمه اللّه في تفسيره القيم «روح المعاني (*)».

(«قل» يا محمد ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾ أي الرديء والجيد من كل شيء فهو حكم عام في نفي المساواة عند اللّه بين النوعين والتحذير عن رديِّها) (١).

(«فاتقوا اللّه يا أولي الألباب» في تحرّي الخبيث وإن كثر وآثروا عليه الطيب وإن قلّ فإن مدار الاعتبار هو الخيريّة والرداءة لا الكثرة والقلّة وفي الأكثر أحسن كل شيء أقله وللّه درّ من قال.

والناس ألفٌ منهُمُ كواحد
وواحدٌ كالألْفِ إن أمْرٌ عَنَا (*) (٢).

وفي الآية إشارة كما قيل إلى غلبة أهل الإسلام وإن قلّوا (٣).

قال القرطبي رحمه اللّه في قوله تعالى ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب﴾ بعد أن ذكر أقوال المفسرين.

«والصحيح أن اللفظ عام في جميع الأمور، يُتَصَوَّر في المكاسب والأعمال، والناس والمعارف من العلوم وغيرها فالخبيث من هذا كله لا يُفلح ولا ينجب، ولا تحسن له عاقبة وإن كثر والطيب وإن قلّ نافعٌ جميل العاقبة (٤).

قال تعالى:

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد اللّه ليعذبهم بها في الحياة

(*) هذا التفسير جيد وإن كان لا يخلو من بعض الخلل في أمور العقيدة.

(١، ٢، ٣) روح المعاني المجلد الرابع ج ٧ ص ٣٧.

(*) عَنَا الأمر إذا نزل.

(٤) تفسير القرطبي المجلد ٦ ص ٣٢٧.

الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [٣].

قال السعدي رحمه اللّه في تفسيره .

يقول تعالى :

فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم فإنه لا غبطة لهم فيها .

وأول بركاتها عليهم أن قدّموها على مراضي ربهم وعصوا اللّه لأجلها ﴿ إنما يريد اللّه ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ .

والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقّة في تحصيلها، والسعْي الشّديد في ذلك وهمّ القلْب فيها، وتعب البدن .

فلو قابلْت لذاتهم فيها بمشقاتهم ، لم يكن لها نسبة إليها فهي ـ لما ألهتهم عن اللّه وذكره ـ صارت وبالاً عليهم حتى في الدنيا .

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإرادتهم لا تتعداها فتكون منتهى مطلوبهم . وغاية مرغوبهم ، ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة » [١].

قال القرطبي رحمه اللّه في قوله تعالى :

﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ نصٌّ في أن اللّه يريد أن يموتوا كافرين، سبق بذلك القضاء » [٢].

---

(٣) الآية ٥٥ سورة التوبة .

(١) تفسير السعدي مجلد (٣) ص ٢٤٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ سورة التوبة .

ومثلها الآية الأخرى .

« ولا تعجبْك أموالهم وأولادهم إنما يريد اللّه أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (١).

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ .

« إنّ اللّه طيّبٌ لا يقبل إلا طيّباً وإنّ اللّه أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المرسلين، فقال ﴿ يا أيها الرسُلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ (٢). وقال : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (٣) ثم ذكر الرجل يطيلُ السفَرَ ، أشْعَثَ ، أغْبَر، يمُدُّ يديْه إلى السماء يا ربِّ ! يا رب! ومطعَمُهُ حرام ومشرَبُهُ حرامٌ ومَلْبَسُهُ حَرامٌ وَغُذِّيَ بالحرام فَأَنّىّ يستجاب لذلك) (٤).

وعن عقبة بن عامر رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال :

« إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدْراج (٥). ثمّ تلا

﴿ فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليْهم أبواب كل شيْءٍ، حتى إذا فرحوا بما أوُتوا أخذْناهُم بغْتةً فإذا هم مبلسون ﴾ (٦).

(١) الآية ٨٥ سورة التوبة .

(٢) الآية ٥١ من سورة المؤمنون وتمامها ﴿ إني بما تعملون عليم ﴾ .

(٣) الآية ١٧٢ من سورة البقرة وتمامها ﴿ واشكروا للّه إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

(٤) رواه احمد ومسلم والترمذي وهو حديث صحيح وهو في صحيح الجامع برقم ٢٧٤٤ .

(٥) حديث صحيح لغيره رواه أحمد وابن جرير وغيرهما من طريق حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر مرفوعاً وتابعه ابن لهيعة فالحديث بهذه المتابعة صحيح . [السلسة الصحيحة (١) لشيخنا الألباني] .

(٦) الآية ٤٤ سورة الأنعام .

نماذج وأمثلة
بين القلة والكثرة

١ ـ واحدٌ بألف

بل هو خير منهم .

بل هو أشد على المشركين من الألف صوته يرعب المشركين أكثر من ألف رجل إنه أبو طلحة رضي اللّه عنه .

عن أنس قال قال رسول اللّه ﷺ .

« لصوت أبي طلحة أشدُّ على المشركين من فئة » (١).

وعن جابر (*). وأنس قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم .

« لصوت أبي طلحة في الجيش خير من الف رجل » (٢).

٢ ـ طالوت وصحبه

لقد قص علينا ربنا تبارك وتعالى القصص في القرآن ليكون لنا عبرة .

---

(١) صحيح على شرط مسلم أخرجه أحمد ج٣ ص ٢٠٣ .

(*) الحديث من حديث أنس وليس جابراً وراجع السلسلة الصحيحة لشيخنا الألباني مجلد (٤) ح ١٩١٦ .

(٢) صحيح لغيره أخرجه الحاكم وابن عساكر وفيه ابن عقيل وهو حسن الحديث .

قال تعالى :

«لقدْ كان في قصصهم عبرةٌ لأُولي الألْباب ما كان حديثاً يُفْترى ولكن تصْديق الذي بيْنَ يَديْهِ وتفصيلَ كل شيء وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون» (١).

قال السعدي رحمه اللّه

[عبرة لأولى الألباب] أي يعتبرون بها أهل الخير، وأهل الشر وأن من فعل مثل فعلهم نالَهُ ما نالهم من كرامةٍ أو إهانة .

ويعتبرون بها أيضاً، ما للّه، من صفات الكمال والحكمة العظيمة وأنّه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحدَهُ لا شريك له» (٢).

ومن قصص القرآن التي قصّها ربنا علينا قصة طالوت وقومه .

قصة فيها ثلاثة مواقف كلها مدح للُقلّة المؤمنة وذم للكثرة التي تطلب وتتقاعس .

ويُطْلَب منها وتتقاعس .

الموقف الأول :

نَكْثُ وعدهم بقتال الأعداء وعدم وفائهم به قال تعالى :

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهُمُ ابعث لنا ملكاً نُقاتِلْ في سبيل اللّه قال هل عسيْتُمْ إن كُتبَ عليكمُ

---

(١) الآية ١١١ سورة يوسف .

(٢) تفسير السعدي المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ٤ ص ٦٥ .

القتالُ ألاّ تقاتلوا قالوا وما لنا ألاّ نقاتلَ في سبيل اللّه وقد أخْرجْنا من ديارنا وأبنائنا فلما كُتِبَ عليّهمُ القتالُ تولّوا الا قليلاً منهم واللّه عليمٌ بالظالمين» (١).

قال السعدي رحمه اللّه في تفسيره .

« يقصّ اللّه تعالى هذه القصّة على الأمّة ، ليعْتَبروا وليرْغبوا في الجهاد ولا ينكلوا عنه .

فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدّنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين. فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة ، تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يُعيّن لهم ملكاً، لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة ولا يبقى لقائل مقال .

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا مجرد كلام لا فعل معه .

فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً .

وأن القتال متعيّن عليهم حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ورجوعهم إلى مقرّهم ووطنهم» (٢).

هؤلاء بنو إسرائيل.

طالبوا نبيهم بملك ليجاهدوا في سبيل اللّه استجاب لهم نبيهم بعد أن تبين له أنهم عازمون وكان متخوفاً من نكثهم .

---

(١) الآية ٢٤٦ سورة البقرة .

(٢) تفسير السعدي ج ١ ص ٣٠٥ .

فرض الله عليهم القتال .

فماذا كانت النتيجة ؟

قال تعالى :

﴿ فلما كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم واللّه عليم بالظالمين ﴾ .

قال ابن كثير رحمه اللّه في تفسير ها .

« ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم »(١) .

الموقف الثاني :

شُرْبُ أكثرهم من النهر مع نهيهم عن ذلك

فرض عليهم الجهاد فنكص أكثرهم وخرج أقلهم وجاء الاختبار الثاني لهذه القلّة التي خرجت للقتال في سبيل اللّه بعد أن نجحت في الاختبار الأول .

لابدّ من تمييز الصابر من غير الصابر لابدّ من تمييز الصادق من غير الصادق .

قال تعالى :

﴿ فَلمّا فَصَلَ طالوتُ بالجُنود قالَ إنَّ اللّهَ مُبتَليكُم بنهر فمن شرب منْهُ فليس منيّ وَمَنْ لمْ يطعمْهُ فإنّهُ مَنيّ إلاّ من اغْترف غُرفَةً بيده فَشَربوا منْهُ إلاّ قليلاً منهم فلمّا جاوزَهُ هُوَ والذين آمنوا مَعَهُ قالوا لا طاقَةَ لنا اليوم بجالوت وجنوده قالَ الذين يَظنونَ أنهمُ ملاقوا اللّه كمْ منْ فِئَةٍ قليلةٍ غلبتْ فِئَةً كثيرة بإذنِ اللّه واللّه مع الصابرين ﴾ (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

موقف يحتاج إلى صبر وما صبر إلا القليل موقفٌ يحتاج إلى طاعة وليِّ الأمر فعصى الكثير وأطاع القليل .

موقف يحتاج لمجاهدة النفس مخالفة هواها فما جاهد نفسه وخالف هواها إلا القليل .

موقف يحتاج إلى إيمان لأنه موقف امتحان وما اجتازه إلا القليل .

الموقف الثالث :

النصر للقلّةِ المؤمنة

سقطت الكثرة في الإختبار

وما جاوز النهر إلا مؤمن .

وكانوا أقل القليل .

وانقسمت القلّة المؤمنة في تقييمهم للموقف فقال أكثرهم .

« لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .

فنحن قلّة وهم كثرة .

وقال علماؤهم العاملون

« كم من فئة قليلة غلَبَتْ فئة كثيرة بإذن اللّه واللّه مع الصابرين » .

فالنصر من عند اللّه ليس عن كثرةِ عدد ولا عُدد فالنصر مع الصبر ومع الكرب الفرج .

فعن ابن عباس رضي اللّه عنه قال قال رسول الله .

النّصْرُ مع الصبرِ والفرَجُ مع الكرْبِ وإنّ مع العسرِ يُسْراً » [١] .

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما من طرق عن الليث بن سعد به .=

قال تعالى :

﴿ ولما برَزَوا لجالوتَ وَجُنوده قالوا ربّنا أفْرِغْ عليّنا صبْراً وثَبّت أقْدامنا وانْصُرْنا على القَوْم الكافرين * فهزَموهُمْ بإذن الله وقَتَلَ داودُ جالوت وآتاه اللّهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وعلّمهُ مما يشاءُ ولولا دَفعُ اللّه النّاسَ بعضَهُم ببعْضٍ لَفسَدتِ الأرْض ولكنَّ اللّه ذو فضلٍ على العالمين ﴾ (١).

وفي هذه القصة عبر كثيرة ساقها السعدي رحمه اللّه في تفسيره فقال:

« ومن جملة الأدلة على رسالته هذه القصة حيث أخبر بها وحياً من اللّه مطابقاً للواقع .

وفي هذه القصة، عبر كثيرة للأمة .

منها :

١ ـ فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده وثمراته وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال .

وأن المجاهدين ولو شقّت عليهم الأمور ، فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً ، فإنهم سيتعبون طويلاً .

٢ ـ الانتداب لرياسة من فيه كفاءة وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين .

إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير وإلى القوة التي ينفذ بها الحق .

= كما أخرجه أحمد والضياء من طرق عن قيس بن الحجاج به وقال الترمذي حسن صحيح وهو كما قال (ظلال الجنة).

(١) الآيتان ٢٥٠ / ٢٥١ سورة البقرة .

وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره ومنها .

٣ ـ الاستدلال بهذه القصة ، على ما قاله العلماء، أنه ينبغي لأمير الجيوش، أن يتفقدها عند فصولها فيمنع من لا يصلح للقتال من رجال وخيل وركاب، لضعفه أو ضعف صبره، أو لتخذيل، أو خوف الضرر بصحبته ، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس .

ومنها :

٤ ـ أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين وتشجيعهم، وحثهم علي القوة الإيمانية ، والإتكال الكامل على اللّه، والإعتماد عليه وسؤال اللّه التثبيت، والإعانةِ على الصبر والنصر على الأعداء .

ومنها :

٥ ـ أن العزم على القتال والجهاد، غير حقيقتهِ فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزيمته ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ .

« أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد »[١] . فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأتوا بكلام يدلّ على العزم المصمم لما جاء الوقت نكص أكثرهم ويشبه هذا قوله ﷺ .

« وأسألك الرضا بعد القضاء »[٢].

---

(١) حديث ضعيف رواه النسائي من طريق أبي العلاء عن شداد وهو منقطع بين ذلك الأمام أحمد فرواه عن أبي العلاء عن الحنظلى عن شداد والحنظلى مجهول. ومن طريقه رواه الترمذي «المشكاة ح ٩٥٥» .

(٢) أخرجه النسائي والحاكم من طريق عطاء بن السائب عن ابيه به وإسناده صحيح وصححه الحاكم والذهبي وحدّث به عطاء قبل الاختلاط » الكلم الطيب ج ١٠٥ .

لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس هو الرضا الحقيقي [١].

* * *

(١) تفسير السعدي المعروف بي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ج١ ص ٣٠٩ / ٣١٠.

٣ ـ أصحاب بدر الكبرى رضي اللّه عنهم أجمعين

بدْر وما أدراك ما بدر .

هي يوم الفرقان

يوم أعز اللّه فيه الإسلام وأهله .

يوم أذل الله فيه الشرك وأهله .

يوم أعز اللّه فيه الإسلام مع قلّة عدد المسلمين وقلّة عُدَدِهم .

يوم أذل اللّه فيه الشرك مع كثرة عدد المشركين وعُدّتِهم الكاملة .

يوم دعا فيه رسول اللّه ﷺ ربه قائلاً .

« اللهم إنك إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبدْ في الأرض » (١) .

يومٌ فاز من شهده مؤمناً دنياً وآخرة .

فُضلوا على غيرهم دنياً وآخرة .

عن رفاعة بن رافع الزُّرقِيّ قال .

جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال .

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم وهي في مختصر مسلم برقم ١١٥٨ .

« ما تُعُدّون من شهد بدراً فيكم؟ قلت خيارنا، قال وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة » (١).

وفازوا برضوان اللّه ومغفرة ذنوبهم يوم يلقونه .

عن عليٍّ رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ .

« وما يدريك؟ لعلّ اللّه قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢).

وأهل بدر لن يلجوا النارَ تكريماً لهم لما بذلوا من جهد عظيم في سبيل اللّه .

عن جابر قال قال رسول اللّه ﷺ .

« لن يدخل النار رجلٌ شهد بدراً والحديبية » (٣).

هذه هي القلّة في بدْر أيّد اللّه بهم الدّين ونصرهم على الكفار .

وأولئك أصحاب طالوت وهم قلّة أيّدَ اللّه بهم الدين ونصرهم على الكفار .

فما صلة هؤلاء بأولئك .

اقتضت حكمة الله أن يكونوا نفس العدد .

فأصحاب بدر بعدةِ أصحاب طالوت .

---

(١) صحيح رواه أحمد والبخاري وابن ماجه ورواه كذلك أحمد وابن ماجه وابن حبان عن رافع بن خديج .

(٢) صحيح متفق عليه وقد رواه أبو داود عن أبي هريرة وكذلك أحمد عن ابن عباس وعن جابر وهو في صحيح الجامع برقم ٧١٢٦ .

(٣) رواه احمد وهو صحيح ورواه مسلم في قصة حاطب مع عبده .

عن البراء رضي الله عنه قال :

« حدّثني أصحابُ محمد ﷺ ممّن شَهِدَ بدْراً أنّهم كانوا عدّة أصْحاب طالوت الذين جازوا معه النهر بضْعَة عشر وثلاثمائةٍ قال البراء : لا واللّه ما جاوَزَ معَهُ النّهرَ إلاّ مؤمن » (١).

وعن البراء قال :

« كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدّثُ أن عدّة أصحاب بدْر على عدّة أصحاب طالوتَ الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، بضعة عشر وثلاثمائة » (٢).

أصحاب بدْرٍ أيدّهم اللّه بالملائكة وما حدثنا القرآن أن أصحاب طالوت فُعل بهم كذلك قال تعالى :

﴿ ولقدْ نصركُمُ اللّهُ ببدْرٍ وأنْتُمْ أذلّةٌ فاتقوا اللّهَ لعلكُم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يَكْفيَكُم أن يُمدّكُمْ ربّكُمْ بثلاثة آلافٍ من الملائكَة مُنزَلينْ * بلى إن تَصْبِروا وتتّقوا ويَأتوكُمْ منْ فوْرِهمْ هذا يُمددكُمْ ربُّكُمْ بخمْسَة آلافٍ منَ الملائكَة مسوِّمينَ * وما جَعَلَهُ اللّهُ إلا بُشَرْى لكُمْ ولتطمَئِنّ قلوبُكُمْ به وما النصّرْ إلا من عنْد اللّه العزيز الحكيم * ليقْطَعَ طرفاً من الذين كَفروا أو يَكْبتَهُم فيَنْقَلِبوا خائبين ﴾ (٣).

أصحاب بدر خرجوا بأمر الرسول وما مرّوا باختبارات قبل الخروج .

وأصحاب طالوت اجتازوا اختبارين فسقط الاكثرون ونجح الأقلون .

---

(١) صحيح رواه البخاري وهو برقم ٣٩٥٧ فتح ج ٧ .

(٢) صحيح رواه البخاري وهو برقم ٣٩٥٨ فتح ج ٧ .

(٣) الآيات ١٢٣ ـ ١٢٧ سورة آل عمران .

شهد اللّه عز وجل وشهد رسوله ﷺ لكلا الطائفتين بالإيمان .

هذه قلة بدر التي أراد اللّه عز وجل لها أن تكون سبباً في انتشار الإسلام في شتى بقاع الأرض .

ومن القلّة إلى الكثرة والتفاخر بها وما نتاج ذلك ؟

* * *

يوم حنين

يوم انتقل فيه المسلمون لقتال هوازن وثقيف وقدْ منّ اللّه عليهم بفتح مكة معقل قريش .

يوم خرج المسلمون فيه بجمعهم وقد رفعوا رؤوسهم عالياً .

يومٌ ظنّ المسلمون فيه أن النصر حليفهم لا محالة لكثرتهم .

يوم أراد الله فيه أن يبيّن للمسلمين أن النصر من عنده ينصر من يشاء، ولن تغني الكثرة عنهم شيئاً .

فالمسلمون في بدْرٍهمُ المسلمون في حنين مع زيادة هائلة في عددهم .

دخل شيءٌ من العُجْب في نفوسهم أصاب جدار التوكل المطلق في قلوبهم .

فاراد اللّه عز وجل لهم أن لا تشوب إيمانهم شائبة .

فكانت الهزيمة ابتداءً .

ثبت رسول اللّه ﷺ وقلّة معه أنزل الله عليهم السكينة والثبات .

كانت لحظات كرب وفزع وشدّة انتابت المسلمين فانهزموا .

وكان لابدّ من شيء يذكرهم .

فقال رسول اللّه ﷺ :

« أي عباس ناد أصحاب السّمرُة [١] » فقال عباس (وكان رجلاً صيِّتاً) فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السّمُرة ؟.

قال فواللّه لكأنّ عطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفةُ البقَر على أولادها، فقالوا يا لبيّكَ يا لبيْكَ قال فاقتتلوا والكفار » [٢].

وجاء النصر تاليا.

فاءوا إلى اللّه عز وجل فأَيَّدهم بالملائكة وظهرت معجزات لنبينا ﷺ .

فعن سلمة بن الأكوع وذكر حديثاً وفيه .

« ... ومررتُ على رسول اللّه ﷺ منهزماً [*] وهو على بغْلَته الشهباء، فقال رسول اللّه ﷺ « لقد رأى ابن الأكوع فزعاً » فلما غشوا رسول اللّه ﷺ نزل عن البغْلَةِ ثمّ قبض قبضةً من ترابٍ من الأرض ثمّ استقبل به وجوههُم فقال « شاهت الوجوه » فما خلق اللّه منهم إنساناً إلا ملأَ عينيْه تُراباً بتلكَ القبْضةِ ، فولّوا مدْبرينَ فهزمهم اللّه عز وجل بذلك ، وقسم رسول اللّه غنائمُهم بين المسلمين » [٣].

أنزل اللّه عزّ وجلّ فيما حصل قرآنا يُتلى إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ليكون عبرة لنا فهل نحن كذلك .

قال تعالى :

---

(١) أي ناديا عباس أصحاب الشجرة المسماة بالسَّمُرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان كما قال تعالى (لقد رضي اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة).

(٢) صحيح رواه مسلم وهو في مختصر مسلم برقم ١١٨٩ .

(*) المنهزم هو سلمة بن الأكوع لا رسول اللّه ﷺ كما يتبادر من السياق.

(٣) صحيح رواه مسلم وهو في مختصر مسلم برقم ١١٩١ .

﴿لَقَدْ نصَرَكُمُ اللّهُ في مَواطنَ كَثيرةٍ ويوْمَ حُنينٍ إذ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُم فلَمْ تُغْنِ عنكم شيْئاً وضاقَتْ عليكُمُ الأرْضُ بما رَحُبَتْ ثمَّ وليّتُمْ مدْبرينَ * ثمّ أنزلَ اللّهُ سَكينَتَهُ على رسوله وعلى المؤمنينَ وأنزل جنوداً لمْ تروْها وعذّبَ الذين كفروا وذلك جزاءُ الكافرين﴾ (١).

وذكر ابن القيم رحمه اللّه كلاماً طيباً حول ما تضمنته هذه الغزوة من مسائل فقهية ونكت حكمية أجتزيء منها .

قال رحمه اللّه

« اقتضت حكمته عز وجل أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وَعُدَدهم وقوّة شوكتهم، ليطامنَ(*) رؤوساً رُفعت بالفتخ ولم تدْخل بلده وحرَمَهُ كما دخله رسولُ اللّه ﷺ واضعاً رأسَهُ منحنياً على فرسه، حتى إنّ ذقنه تكاد أن تمسّ سرْجَهُ تواضعاً لربه، وخضوعاً لعظمته، واستكانةً لعزّته ، أن أحَلّ له حَرَمَهُ وَبلده ولم يحلّ لأحدٍ قبله ولا لأحد بعده وليبيّن سبحانه لمن قال لن نُغلب اليوم عن قلّةٍ أن النصر إنما هو من عنده، وأنّه من ينصرْهُ فلا غالب لهُ، ومن يخذلْهُ فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه لاكثرتكم التي أعجبتكم فإنها لم تغن عنكم شيئاً فولّيتم مدْبرين .

فلما انكسرت قلوبهم أُرْسِلَت إليها خلَعُ الجبْرِ مع بريد النصر (فأنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها) .

---

(١) الآيتان ٢٥، ٢٦ سورة التوبة .

(*) ليحني رؤوساً فيجعلها خاضعة تماماً لعظمته .

وقد اقتضت حكمته أن خلَعَ النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الإنكسار (١).

﴿ ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (٢).

الإعجاب بالكثرة أدّى إلى ما ادّى إليه من هزيمة ما حقة لولا أن تداركتهم رحمة اللّه .

والعجب هو سبب هلاك المتعبدين .

فعن أنس قال :

ذُكِرَ لنا أن رسول اللّه ﷺ قال :

« إن فيكُم قوماً يتعبدون حتى يُعجبوا الناس، ويعجبُهم أنْفُسُهم، يَمْرُقون من الدين كما يمرقُ السهم من الرمية » (٣).

وأشد أنواع العجب خطراً إعجاب وليّ الأمر بجنده ومن حوله فقد يكون هذا سبباً ليهلكهم اللّه عز وجل .

فعن صهيب قال :

« كان رسولُ اللّه ﷺ إذا صلّى هَمَسَ شيئاً لا أفهمه، ولا يخبرُنا به، قال : أفطنتمُ لي؟ قلنا : نعم قال : إنيّ ذكرتُ نبياً من الأنبياء أُعطيَ جنوداً

---

(١) زاد المعاد مجلد (١) ج ٢ ص ٢١١، ٢١٢ .

(٢) الآيتان ٥، ٦ سورة القصص .

(٣) صحيح رواه أبو يعلى بإسناد صحيح علي شرط مسلم ورواه غيره بالفاظ أخرى تجدها في السلسلة الصحيحة لشيخنا حفظه اللّه مجلد (٤) ح ١٨٩٥ .

منْ قومه، (وفي رواية : أُعْجب بأمّته) فقال من يكافيءُ هؤلاء؟ أوَمنْ يقومَ لهؤلاء أو غيرَها من الكلام، (وفي الرواية الأخرى: من يقوم لهؤلاء؟ ولم يشكّ)، فَأُوحِيَ إليه أن اخترْ لقومك إحدى ثلاث، إمّا أنْ نسلط عليهم عدُوّاً من غيرهم، أو الجوع، أو الموت، فاستشار قومَهُ في ذلك، فقالوا أنْت نبيُّ اللّه فكلّ ذلك إليْك، خرْ لنا، فقامَ إلى الصلاة وكانوا إذا فزعوا فزعوا إلى الصلاة فصلىّ ما شاءَ اللّه، قال ثمّ قال أيْ ربِّ أما عدوٌّ من غيرهم فلا، أو الجوعُ فلا، ولكن الموت فسلّط عليهم الموتَ فمات منهم في يوم سبعون ألفاً فَهَمْسي الذي تروْنَ أني أقول .

اللهم بك أحولُ وبك أصولُ وبك أقاتل» (١).

فهلا كان في هذا عبرة لنا ونحن نملأُ الدنيا صياحاً وجعجعة تفاخراً بقواتنا وتطاولاً فإذا هي تندحر في الميدان أمام أعداء اللّه في أقل من ست ساعات .

اللهم غفراً .

الحج المبرور وأصحابه .

عبادة من العبادات ينصب فيها البدن وينفق فيها المال.

وهو ركن من أركان الإسلام .

فرضه اللّه عز وجل في العمر مرة وما زاد فهو تطوع .

عبادة يجتمع فيها المسلمون من شتى بقاع الأرض امتثالاً لأمر ربهم بفرضها عليهم.

---

(١) صحيح أخرجه أحمد وإسناده صحيح على شرط الشيخين ح ٢٤٥٩ سلسلة مجلد (٥).

وتقف بعرفات فماذا ترى ؟

أناس يقضون هذه اللحظات في الأكل والشرب وآخرون يجتمعون وإمامهم الدنيا .

وتسمع من يسب ويشتم احياناً .

وترى من يفتون بغير علم .

ومن يرتكب المعاصي كشرب الدخان والتحلي بخاتم الذهب .

وتجدُ في هذه اللحظات التي هي لحظات تقرب إلى اللّه عز وجل من يدعو غير اللّه من وليٍّ ونحوه .

وعند رمي الجمرات ترَ العجب العجاب .

أمرنا رسول اللّه برمي الجمرات بالحصى فترى من يرمي بالأحذية .

وترى التزاحم والتدافع والقتلى نتيجة لذلك .

وترى في كثير من الأحيان عدم الترتيب في رمْي الجمرات .

وقلْ مثل ذلك في الطواف أو أشد .

والحج عبادة يجب أن يلتزم العبد فيها بأوامر نبيه ﷺ .

فمن يفعل ذلك :

قلّة هم الذين يحجون كما حج رسول اللّه ﷺ وأصحابه .

وهؤلاء هم إن شاء اللّه أصحاب الحج المبرور .

فما هو الحج المبرور .

قال الحافظ رحمه اللّه في الفتح .

« قال ابن خالوية : المبرور المقبول ، وقال غيره الذي لا يخالطه شيء من الإثم ورجحّه النووي .

وقال القرطبي : الأقوال التي ذكرت تفسيره متقاربة المعنى وهي «أنه الحج الذي وُفِّيت أحكامه ووقع موقعاً لما طلب من المكلف على الوجه الأكمل واللّه أعلم» (١).

فعن جابر رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ .

«الحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنّة» (٢).

وبر الحج يكمن في طيب الكلام .

كما هو في إطعام الطعام .

ومن طيب الكلام افشاء السلام .

ومن طيب الكلام أن يجادل بالحسنى إن احتاج إلى ذلك .

ومن طيب الكلام ترك الكلام البذيء وما يُشعر بالرغبة في النساء .

فعن جابر رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ .

«برّ الحج إطعام الطعام، وطيب الكلام» (٣).

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال :

سمعت رسول اللّه ﷺ يقول :

من حج للّه فلمْ يرفُثْ (*) ولم يفسق (**) رجع كيوْم ولدَتْهُ

---

(١) فتح الباري ج٣ ص ٣٨٢ .

(٢) حديث حسن رواه أحمد وكذلك الطبراني عن ابن عباس وهو برقم ٣١٧٠ صحيح الجامع الصغير وبرقم ٧٦٩ في الأرواء.

(٣) حديث حسن أخرجه أحمد والحاكم وغيرهما وهو في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٦٤.

(*) الرفث الجماع ويطلق على التعريض به والفحش في القول .

(**) لم يفسق لم يأت بسيئةٍ ولا معصية .

أمُّـــه »[١].

هذا هو الحج المبرور ونحن وإن كنا نسأل اللّه عز وجل أن يكون حج الجميع مبروراً فإن الواقع المشاهد والظاهر لنا أن أقلّ القليل هم من يرجعون بحج مبرورٍ .

* * *

(١) حديث صحيح رواه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه وهو في صحيح الجامع برقم ٦١٩٧.

٦ ـ طريق الجنة محفوف بالمكاره

سلعة اللّه عز وجل غالية .

وسلعته عز وجل هي الجنّة .

والطريق إليها محفوف بالمكاره .

ولا جتياز الطريق والوصول للجنة لابد من الصبر على المكاره .

ولا يصبر إلا القليل .

ومن أفضل خصال الصابرين وهم قلّة أن يحسنوا إلى من أساء إليهم .

قال تعالى :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هل أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يُلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (١) .

قال ابن كثير رحمه اللّه في تفسير الآية .

« أمر اللّه المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم اللّه من الشيطان وخضع لهم عدوّهم كأنه وليّ حميم » (٢) .

---

(١) الآيتان ٣٤، ٣٥ سورة فصلت .

(٢) تفسير ابن كثير مجلد (٤) ص ١٠١ .

وقال رحمه اللّه ايضاً .

(وما يلقاها الا الذين صبروا) أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلاّ من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس .

﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة (١) .

وقال السعدي رحمه اللّه في تفسير قوله تعالى :

﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ..... ﴾

« وما يوفقّ لهذه الخصلة الحميدة إلا الذين صبّروا أنفسهم على ما تكره وأجبروها على ما يحبه اللّه .

فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء باساءته وعدم العفو عنه فكيف بالإحسان ؟

فإذا صَبّر الإنسان نفسه ، وامتثل أمْرَ ربّه وعرف جزيل الثواب ، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا تفيده شيئاً ، ولا تزيد العداوة إلا شدّةً وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره بل من تواضع للّه رفعه هان عليه الأمر وفعل ذلك متلذذاً، مستحلياً له .

﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد . الرفعة في الدنيا والآخرة ، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق » (٢) .

فعن علي رضي اللّه عنه قال :

---

(١) تفسير ابن كثير مجلد (٤) ص ١٠١ .

(٢) تفسير السعدي ج ٦ ص ٥٧٧، ٥٧٨ .

لما ضَمَمْتُ إليّ سلاح رسول اللّه ﷺ وجدْت في قائم سيف رسول اللّه رقعة فيها .

« صلْ من قطعَكَ وأحْسن إلى من أساءَ إليك، وقل الحقّ ولو علىَ نفسك » (١).

والجنّة حُفَّت بالمكاره حتى خشى جبريل عليه السلام أنْ لا يدْخلها أحد، لأن القليل هم الذين يصبرون على المكاره يؤدون الطاعات ويجتنبون المناهي ».

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال :

« لمّا خلَق اللّه الجنّة قال لجبريل : اذهب فانظرْ إليها، فذهَبَ فنظَرَ إليها، ثمّ جاء فقالَ: أيْ ربّ وعِزَّتك لا يَسْمَعُ بها أحدٌ إلا دخلها، ثمّ حفّها بالمكارِه، ثمّ قال يا جبريلُ! اذهب فانظرْ إليها فذهب ثمّ نظرَ إليها، ثمّ جاء فقالَ أيْ ربّ وعزّتكَ لقدْ خشيتُ أن لا يدْخُلَها أحدٌ، فلمّا خلَقَ اللّهُ النّار، قال يا جبريلُ اذهب فانظرْ إليها، فذهب فنظرَ إليها ، ثمّ جاء فقال: وعِزّتك لا يسْمَعُ بها أحدٌ فَيَدْخُلُها، فحفّها بالشهوات ثمّ قال : يا جبريلُ اذهب فانظُرْ إليَهْا فذهب فنظرَ إليها فقال: أيْ ربّ وعزّتِكَ لقد خشيت أن لا يبقى أحدٌ إلا دخلها »(١).

قال الحافظ رحمه اللّه في الفتح .

« المرادُ بالمكاره هنا ما أمُرَ المكلّف بمجاهدة نفسه فيه فعلاً وتركاً

---

(١) صحيح رواه ابن النجار وابن السماك في حديثه والسياق له وهو في السلسلة الصحيحة مجلد (٤) ح ١٩١١ .

كالاتيان بالعبادات على وجهها والمحافظة عليها واجتناب المنهيات قولا وفعلاً .

وأطلق عليها المكاره لمشقتها على العامل وصعوبتها عليه ومن جملتها الصبر على المصيبة والتسليم لأمر الله فيها .

والمراد بالشهوات ما يُسْتَلَذُّ من أمور الدنيا مما منع الشرع من تعاطيه إما بالأصالة وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات ويلتحق بذلك الشبهات والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم، فكأنه قال:

« لا يوصَلُ إلى الجنّة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم » (١).

* * *

(١) فتح الباري مجلد ١١ ص ٣٢٠ باب حجبت النار بالشهوات .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخلاصة

وأختم كلامي حول هذا الموضوع بنصائح أنصح بها نفسي أولاً وإخواني ثانياً عسى أن نلقى اللّه يوم نلقاه وهو راض عنا .

النصيحة الأولى :

سبيل النجاة أن يكون هلاكك في اتباع السُّنّة وإياك وما ابتدعه المبتدعون فإن طريقهم هو سبيل الهلاك .

ومهما كان عملك وفق السنّة يسيراً فهو خير ولا شك من اجتهادك في بدعة لا تقربك أبداً إلى اللّه .

فعن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال .

« الاقتصاد في السنّة أحسن من الاجتهاد في البدعة » (١) .

ويكفي في البدعة أياً كانت في الدين فهي مردودة على صاحبها سواءً من ابتدعها أو من عمل بها » .

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت قال رسول اللّه ﷺ :

---

(١) صحيح رواه الحاكم موقوفاً على ابن مسعود وقال اسناده صحيح على شرطهما .

« من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ » (١).

وفي لفظ .

« من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ » (١).

قال شيخنا حفظه اللّه تعليقاً على هذا الحديث

« وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في ردّ وإبطال كل البدع والمحدثات ، واللفظ الأول أعمّ في الردّ فإنّه يشمل كلّ عمل بالبدعة ولو كان المُحْدِثُ لها غيره بخلاف اللفظ الآخر » (٢).

فَضَعْ أخي نصب عينيك .

« أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة وأن الناس لن يغنوا عنك من اللّه شيئاً وإن قامت قيامتهم عليك سباً وشتماً وتقريعاً » (٣).

النصيحة الثانية :

كن إن استطعت من البقايا المصلحين لما أفسد الناس من دين اللّه .

قال تعالى :

﴿ فلَوْلا كانَ منَ القُرونِ منْ قَبْلكُمْ أولُواْ بَقيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَن الفَسادِ في

---

(١) صحيح رواه الشيخان وغيرهما واللفظ الأول لمسلم ولفظ « من أحدث » لهما .

(٢) إرواء الغليل مجلد (١) ح ٨٨ ص ١٢٨ لشيخنا العلامة المحدّث محمد ناصر الدين الألباني حفظه اللّه .

(٣) مقتبس من كتاب الاعتصام للشاطبي وهو يصف رحمه اللّه حاله مع الناس ص ٢٧ مجلد (١).

الأَرْضِ إِلاّ قَليلاً مِمَّنْ انْجيْنَا مِنْهُم واتّبَعَ الذين ظَلَموا ما أُتْرِفوا فيهِ وكانوا مُجْرمينَ ﴾(١).

قال السعدي رحمه اللّه .

« لما ذكر تعالى، إهلاكِ الأُمم المكذّبةِ للرسل ، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والإضمحلال، ذكر أنه لولا أنّه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد والرّدى فحصل من نفعهم ما أُبقيت به الأديان ، ولكنهم قليلون جداً.

وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكونوا حجة اللّه أجراها على أيديهم ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بينة »(٢).

ثم قال رحمه اللّه

« وفي هذا حثٌّ لهذه الأمّة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس قائمون بدين اللّه يدْعون من ضلّ إلى الهدى ، ويصْبرون منهم على الأذى ويبصّرونهم من العمى .

وهذه الحالة أعلى حالةٍ يرْغب فيها الراغبون وصاحبها يكون إماماً في الدين، إذ جعل عمله خالصاً لرب العالمين »(٣).

وقد بيّن رسول اللّه ﷺ أنه سيكون في هذه الأمة من أمثال هؤلاء

---

(١) الآية ١١٦ سورة هود .

(٢) تفسير السعدي ج ٣ ص ٤٦٨ .

(٣) تفسير السعدي ج٣ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

ينكرون المنكر عن علم ودراية لا يخشون في ذلك لومة لائم .

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ سمع النبي يقول :

« إن من أمّتي قوماً يُعطَوْنَ مثلَ أُجورِ أوّلهم ، ينكرون المنكر »(١) .

ويجب أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالماً بوجه المعروف والمنكر .

وأن تترجح لديه المصلحة في الأمر والنهي فإن ترجحت المفسدة فلا .

وهنا لابدّ من توجيه النصح لطلبة العلم أن لا يسارع أحدهم إلى إنكار أمر لمجرّد أنه لا يعرفه فقد ينكر معروفاً أو يقرُّ منكراً وهو لا يدْري بل عليه أن يتأكد أولاً إن شكّ في الأمر .

النصيحة الثالثة

كن من الغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس

وقد سبق أن تكلمت حول هذه النقطة في صفات القلّة المحمودة ولكني اطلعت على كلام طيب لابن القيم رحمه اللّه فأحببت أن انقله على صورة نصيحة لنفسي ولإخواني .

قال رحمه اللّه بعد أن ساق أحاديث وآيات تبين من هم الغرباء .

« فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلّتهم في الناس جداً

---

(١) صحيح إسناده جيد رجاله رجال الصحيح وفي زيد بن الحباب كلام لا يضر إن شاء اللّه تعالى وأما جهالة الصحابي فلا تضر السلسلة الصحيحة ح ١٧٠٠ .

تنبيهان أ ـ في سند الحديث عطاء بن السائب روى عنه الثوري قبل الاختلاط .

ب ـ لم يعرف الهيثمي عبد الرحمن الحضرمي وهو عبد الرحمن بن جيبر بن نفير الحضرمي وهو من رجال مسلم .

سموّاً غرباء » فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات .

فأهل الإسلام في الناس غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنّة ـ الذين يميّزونها من الأهواء والبدع ـ فهم غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين : هم أشدّ هؤلاء غُربة . ولكن هؤلاء هم أهل اللّه حقاً فلا غربة عليهم وإنما غربتهم بين الأكثرين الذين قال اللّه عز وجل فيهم .

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل اللّه ﴾[1] .

فأولئك (*) هم الغرباء من اللّه ورسوله ودينه . وغربتهم هي الغربَةُ الموحشةُ وإن كانوا هم المعروفين .

المشارُ إليهم كما قيل .

فليس غريباً من تناءَتْ دياره
ولكنّ منْ تنأَيْنَ عنه غريبُ

فالغربة : غربَةُ أهل اللّه وأهل سنّةِ رسوله بين هذا الخلق ، وهي الغربة التي مدح رسول اللّه ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به : أنه « بدأ غريباً » وأنه « سيعود غريباً كما بدأ » . وأن أهله يصيرون غرباء.

ثم قال رحمه اللّه .

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قومٍ دون قوم . ولكن أهل هذه « الغربة » هم أهل اللّه حقاً، فإنهم لم يأووا إلى غير اللّه، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء

---

(١) الآية ١١٦ سورة الأنعام .

(*) أي المشار إليهم في الآية وهم أكثر أهل الأرض.

به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون فارقنا الناس ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده»(١).

ثم قال رحمه اللّه .

فهذه «الغربةُ» لا وحْشةَ على صاحبها بل هو آنَس ما يكون إذا استوحش الناس وأشدّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليّهُ اللّه ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء من ذكرهم أنس في حديثه عن النبيّ ﷺ .

«ربّ أشعث أغبرَ ذي طمريْنِ لا يؤبه له لو أقْسمَ على اللّه لأبرّه»(٢).

ثم قال رحمه اللّه .

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ .

التمسك بالسنة ، إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد، وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الإنتساب إلى أحد غير اللّه ورسوله، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى اللّه بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالإتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً. وأكثر الناس - بل كلهم - لائمٌ لهم فلغربتهم

---

(١) صحيح رواه أحمد والشيخان وهو في صحيح الجامع برقم ٧٠٣١ .
وهو من حديث أبي سعيد . مع بعض الأختلاف في اللفظ .

(٢) صحيح أخرجه الترمذي والضياء عن أنس بلفظ كم من اشعث وهو عند مسلم بلفظ رب اشعث مدفوع بالأبواب .

بين هذا الخلق: يعدّونهم أهل شذوذ وبدْعة، ومفارقة للسواد الأعظم .

وقال رحمه اللّه

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلةٌ جداً، غريبةٌ بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات ، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول فإن نفس ما جاء به يضادّ أهْواءهم ولذّاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم ، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم .

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى اللّه على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم وأطاعوا شُحَّهم، وأُعْجب كلٌّ منهم برأيه؟ .

ثم قال رحمه اللّه .

فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه اللّه بصيرة في دينه، وفقهاً في سنّة رسوله، وفهماً في كتابه وأراه ما الناس فيه من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسْلُك هذا الصراط: فليوطّن نفسه على قدْح الجُهّال ، وأهْلِ البدَع فيه، وطعنهم عليه وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ » .

فهو غريبٌ في دينه لفساد أدْيانهم، غريب في تمسُّكه بالسنّة ، لتَمسُّكهِم بالبدَع، غريبٌ في اعتقاده لفساد عقائدهم ، غريبٌ في صلاته لسوء صلاتهم ، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبَته لمخالفة نِسَبهم غريب في معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا

تهوى أنفسهم .

وبالجملة : فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجد من العامة مساعداً ولا معيناً فهو عالمٌ بين جُهّال ، صاحب سنّةٍ بيْن أهْل بدع، داعٍ إلى اللّه ورسوله بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قوْمٍ المعروف لديهم منكر والمنكر معروف »[١] .

هذا كلّه كلام ابن القيم نقلته مع طوله لنفاسته عسى أن يكون دافعاً لنا لنكون من صَف الغرباء الذين يحبون اللّه ورسوله ويحبهم اللّه ورسوله.

النصيحة الرابعة

أن يكون هواك تبعاً للحق لا أن يكون هواك هو المقدّم .

الهوى مذموم ولم يأت ذكره في القرآن إلا في معرض الذم .

ومن الآيات الدالة على ذمه قول اللّه تعالى :

﴿ أفرأيْتَ من اتّخذَ إلهه هواهُ وأضَلَّهُ اللّهُ على علْم وختمَ على سَمْعه وقلبه وجَعَلَ على بَصَره غشاوَةٌ فمن يهْديه من بعْد اللّه افلا تذكرّون ﴾[٢] .

قال ابن كثير رحمه اللّه

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) أي إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم

---

(١) نقلاً عن كتاب تهذيب مدارج السالكين والذي قام بتهذيبه عبدالمنعم صالح العلي حفظه اللّه ص ٥٧٨ ، ٥٧٩، ٥٨٠ .

(٢) الآية ٢٣ سورة الجاثية .

بالتحسين والتقبيح العقليين .

(وأضلّه اللّه على علم) يحتمل قولين .

أحدهما : وأضلّه اللّه لعلمه أنّهُ يستحق ذلك والآخر : وأضلّه اللّه بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس .

(وختم على سمعه وقلبه وجعل عل بصره غشاوة) .

أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها »[١] .

وسبب هذا الإنتكاس الذي يصل إليه العبد هو التعرّض للفتن ودخولها لقلبه حتى تحل محل الشراب .

عن حذيفة رضي اللّه عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول :

« تُعْرَضُ الفتَنُ على القُلوب عَرْضَ الحَصير عُوداً عوداً فأيُّ قَلْبٍ أشْرَبَها نُكتَ فيه نُكْتةٌ سَوْداءُ وأيُّ قلْب أنْكَرها نُكتَ فيه نْكتةٌ بيْضاءُ حتّى يَصيرَ على قلبيْن على أَبْيضَ مثْل الصّفا فلا تَضُرُّه فتْنةٌ ما دامَت السماواتُ والأرْض والآخر أسودُ مرْبادّاً (*) كالكوز مُجَخيِّاً(*) لا يعرف معروفاً ولا ينكرِ مُنكراً إلاّ ما أشْربَ منْ هَواهُ »[٢] .

قال تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتجيبوا لكَ فاعْلَمّ أنّما يَتَّبعونَ أهْواءَهُمْ وَمَنْ أضَلّ مِمّن اتّبعَ هَواهُ بغيَر هُدىً منَ اللّه إنَّ اللّهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظّالمينَ ﴾[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير مجلد (٤) ص ١٥٠ .

(٢) صحيح رواه أحمد ومسلم وهو في مختصر مسلم برقم ١٩٩٠ .

(*) مرباداً شيء من بياض يسير يخالط السواد * مُجَخِّيا : منكوساً .

(٣) الآية ٥٠ سورة القصص .

قال الشاطبيّ رحمه اللّه .

وما بينته الشريعة وبينته الآية أن اتباع الهوى على ضربين .

أحدهما .

أن يكون تابعاً للأمر والنهْي فليس بمذموم ولا صاحبه بضال. كيف وقد قدم الهدى فاستنار به في طريق هواه، وهو شأن المؤمن التقي .

والآخر .

أن يكون هواه هو المقدم بالقصد الأول ، كان الأمر والنهي تابعين بالنسبة إليه أو غير تابعيْن وهو المذموم(١).

ثم قال رحمه اللّه

«وقد انجرّ هنا معنى يتأكد التنبيه عليه ، وهو أن الآية المذكورة عيّنت للإتباع في الأحكام الشرعية طريقين .

أحدهما : الشريعة ، ولا شك في أنها علم وحق وهدى، والآخر: الهوى، وهو المذموم، لأنه لم يُذكَرْ في القرآن إلا في سياق الذم ولم يجعل ثمّ طريقاً ثالثاً ومن تتبع الآيات ألفى ذلك كذلك (٢).

قال السعدي رحمه اللّه

وفي قوله عز وجل .

﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾

دليل على أن كل من لم يستجب للرسول وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول فإنه لم يذهب إلى هدى ، وإنما ذهب إلى هوى»(٣).

---

(١) الاعتصام المجلد الأول ص ٥١ .

(٢) الاعتصام مجلد (١) ص ٥٢ .

(٣) تفسير السعدي مجلد (٦) ص ٣٣ .

وكفى بصاحب الهوى شراً أن هواه هوانٌ له دنياً وآخرة .

قال القرطبي رحمه اللّه .

« وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال هوانٌ سُرِقَتْ نونه، فأخذه شاعر فَنَظَمه .

نونُ الهوانِ من الهوى مسروقة
فإذا هَويت فقد لقيت هوانا

وقال آخر

إن الهوى لَهُو الهوان بعينه
فإذا هويت فقد كسبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى
فاخضع لحبك كائنا من كانا

ولعبد الله بن المبارك رحمه اللّه

ومن البلايا للبلاء علامة
ألاّ يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها
والحرّ يشبع تارةً ويجوع[1]

---

(١) تفسير القرطبي مجلد ١٦ ص ١٦٨ .

النصيحة الخامسة

لا تجادل بالباطل فإنه ليس من صفات المؤمنين.

الجدال بالباطل من صفات الكفار وقد وصفهم بذلك ربنا تبارك وتعالى في كتابه .

قال تعالى :

﴿ وما نرْسلُ المرْسَلين إلا مُبَشِّرين ومُنْذرينَ ويجادلُ الذين كفروا بالباطلِ ليدْحضوا به الحقّ واتخذوا آياتي وَما أنْذروا هزوا ﴾[١] .

قال السعدي رحمه الله

أي: لم نُرْسِلِ الرسُلَ عبثاً، ولا ليتخذهم الناس أرباباً ولا ليدْعوا إلى أنفسهم .

بل أرسلناهم يدْعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كلّ شرّ، ويُبشرونه على امتثال ذلك، بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل، ليُدْحضوا به الحق .

فسَعَوْا في نصر الباطل مهما أمكنهم وفي إدحاض الحقّ وإبطاله .

واستهزءوا برسل الله وآياته ، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يُتمّ نورهُ ولو كَرِهَ الكافرون* ويُظهر الحقّ على الباطل «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[٢] .

---

(١) الآية ٥٦ سورة الكهف .

(٢) الآية ١٨ سورة الأنبياء .

ومن حكمة اللّه ورحمته، أن تقييضه المبطلين المجادلين الحقّ بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحقّ وتَبَيُّن شواهده وأدلته، وتبيُن الباطل وفساده ، فبضدها تتبيّنُ الأشياء[١].

قال تعالى :

﴿ ما يُجادلُ في آيات اللّه إلاّ الذين كفروا فلا يَغرُرْك تقلبُّهم في البلاد * كَذّبَت قَبْلَهُم قوْمُ نوحٍ والأحْزابُ منْ بعْدهم وَهَمَّتْ كلُّ أمَّةٍ برسولِهِمْ ليأخذوهُ وجادلوا بالباطل ليدْحضوا به الحقّ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾[٢].

والجدل بالباطل دليلٌ على الضلال عن الحق والبعد عن الهدى

عن أبي أمامة رضي اللّه عنه قال :

قال رسول اللّه ﷺ .

« ما ضلّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[٣].

قال المناوي رحمه اللّه في فيض القدير.

أ ما ضلّ قومٌ مهديون كائنين على حال من الأحوال إلا أوتوا الجدل يعني من ترك سبيل الهدى وركْب سنن الضلالة والمراد لم يمش حاله إلا بالجدل أي الخصومة بالباطل وقال القاضي المراد التعصب لترويج المذاهب الكاسدة والعقائد الزائفة لا المناظرة لإظهار الحق واستكشاف الحال

---

(١) تفسير السعدي ج٥ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) الآيتان ٤ ، ٥ سورة غافر .

(٣) حديث حسن رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وتتمة الحديث ثم قرأ رسول اللّه ﷺ « ما ضربوه لك الاجدلاً بل هم قوم خصمون » الآية ٥٨ سورة الزخرف .

واستعلام ما ليس معلوماً عنده أو تعليم غيره ما عنده لأنه فرض كفاية خارج عما نطق به الحديث (١).

ولقد رغّب رسول اللّه ﷺ في ترك المراء وإن كان الرجل محقاً فوعده ببيت في الجنة وأي فضل يريده الإنسان إلا أن يكون من أهل الجنة .

عن أبي أمامة قال قال رسول اللّه ﷺ :

«أنا زعيمٌ ببَيْتٍ في ربضِ(*) الجَنَّةِ لمنْ ترَكَ المراءَ وإنْ كانَ مُحِقاً، وببيْت في وسطِ الجنّة لمنْ تركَ الْكذِبَ وإنْ كانَ مازِحاً، وببيْتٍ في أعلى الجنّة لمن حسن خلقه»(٢).

وأود أن أنصح إخوتي من طلبة العلم ألا يجادلوا أهل البدع والضلالات ما لم يكونوا متمكنين من العلم حتى لا يورث جدال هؤلاء قلوبهم شكاً ومرضاً .

وليكن لهم أسوة بسلفهم الصالح وخاصة أصحاب رسول اللّه ﷺ ومن بعدهم من التابعين .

١ ـ عن نافع، أن رجلاً أتى ابن عمر فقال إنّ فلاناً يقرأ عليك السلام. فقال إنه بلغني أنّه قد أحدث فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام فإني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول .

---

(١) فيض القدير ج ٥ ص ٤٥٣ .

(*) ربض الجنة فيما حولها من خارج عنها .

(٢) حسن رواه أبو داود وغيره وقد أطال شيخنا النفس في تخريجه في السلسلة الصحيحة رقم ٢٧٣ .

« يكون في أمتي ـ أو في هذه الأمة ـ خسفٌ أو مسخٌ أو قذفٌ في أهل القدر » (١).

٢ ـ عن ابن عمر قال قال رسول اللّه ﷺ .

« القدَريّةُ مجوسُ هذه الأمّةِ إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم »(٢).

عن أبي قلابة : لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن إن يغمسوكم في ضلالتهم ويلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون، قال أيوب : وكان ـ واللّه ـ من الفقهاء ذوي الألباب(٣).

عن الحسن : لا تجالس صاحب هوى فيقذف في قلبك ما تتبعه عليه فتهلك أو تخالفه فيمرض قلبك(٤).

عن إبراهيم : لا تكلموهم إني أخاف أن ترتدّ قلوبكم(٥).

وعن يحي بن أبي كثير قال :

إذا لقيت صاحب بدعة في طريق ، فخذ في طريق آخر(٦).

قال ابن وهب : وسمعت مالكاً إذا جاءه بعض أهل الأهواء يقول أما أنا فعلى بينة من ربي وأما أنت فشاكٌّ فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه ثم قرأ قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة)(٧).

هذا غيض من فيض مما جاء عن سلفنا الصالح رضي اللّه عنهم ورحمهم.

---

(١) صحيح رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود وهو في صحيح الجامع برقم ٤٢٧٤ .

(٢) حديث حسن له طرق يقوي بعضها بعضاً خرجها شيخنا في كتابه الروض النضير.

(٣، ٤، ٥، ٦، ٧) هذه آثار نقلتها من كتاب الاعتصام للشاطبي والعهدة فيها عليه. ج١ ص ٨٣، ٨٤، ١٣١ .

وهذا آخر ما تيسر لي جمعه في هذا البحث

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك .

وكتب **أبو عبد الرحمن**

٨ محرم عام ١٤١٤هـ

٢٧ حزيران ١٩٩٣م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

مقدمة ٣
القلة المحمودة والكثرة المذمومة ٧
١ ـ الكثرة الهباء الغثاء ٢٢
٢ ـ الميزان في الإسلام ٣٣
٣ ـ من هم الغرباء ٣٦
٤ ـ الكثرة المؤدية للفرقة ٤٣
٥ ـ القلة هم من يردون حوض نبينا ﷺ ٤٦
٦ ـ قلة الدنيا والموقف هم أكثر أهل الجنة ٥٠
٧ ـ القلة عند اجتماع قوم على ضلالة ٥٥
٨ ـ عليك بالطيب وإن قل واترك الخبيث وإن كثر ٥٧
نماذج وأمثلة بين القلة والكثرة ٦١
أصحاب بدر الكبرى رضي الله عنهم أجمعين ٦٩
يوم حنين ٧٣
طريق الجنة محفوف بالمكارة ٨١
الخلاصة ٨٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مكتبة وتسجيلات البلاغ
دولة الإمارات العربية المتحدة
دبي ـ ص.ب: ٥٣٨٤٠
هاتف: ٣٨٣٨٦٦ ـ فاكس: ٣٨٤٧٠٠